خالد محمّد خالد

وجاء أبو بكر





دار المعارف



.. وجاء أبو بكر

خالد محمد خالد

.. وجاء أبو بكر

الطبعة السادسة

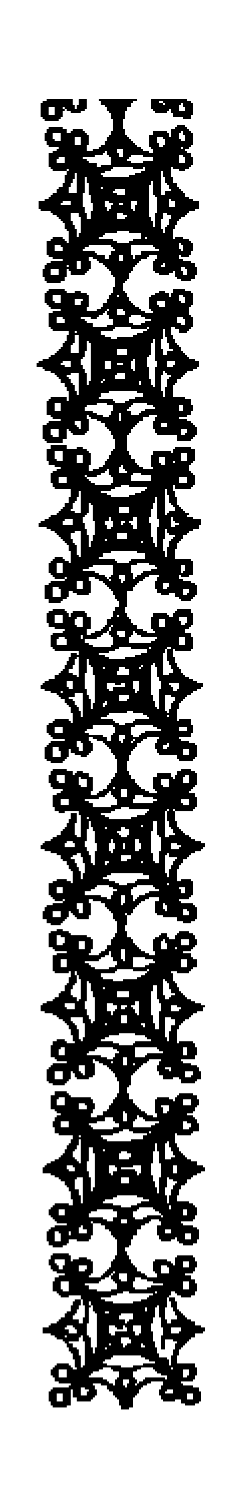


دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

مراجع تاريخية

الكامل	:	ابن الأثير
الطبقات الكبرى	:	ابن سعد
البداية والنهاية	:	ابن كثير
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب	}	محمود شكرى الألوسى
الرياض النضرة . .	:	أبو جعفر الطبرى



الإهـــداء

يا أبا بكر . .

يا خليفة رسول الله . .

إذا أَذِنْتَ لى فى هذه الكلمات ، أَكتُبها عنك ،

فتقبَّل يا – ثانِىَ اثْنَيْنِ – إهْداءها . .

في هذا الكتاب

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

* **ما النور الذى اختار الله أبا بكر لأدائه . . ؟**
* **أبو بكر ، وعمر — أىّ طراز من الحكام كانا . . ؟**

كان مفروضاً أن يكون عنوان هذا الكتاب ، وموضوعه أيضاً ، « بين يدى أبى بكر » بعد أن فتَح الله بكلمات سالفة ، ظهرت فى كتاب « بين يدَى عمر » .

بيْدَ أنى لم أكد أتهيَّأ للكتابة ، وأمضى فيها بِضع صفحات حتى تغيرت المشاهد التى كنت أعيش فى بَهرها وسَناها وملأَ الأفقَ أمامى مشهدٌ واحد فريد ومجيد ، فنحَّيْتُ الأوراق جانباً ، ورُحتِ أتملَّى المشهد وأتأمَّلهُ .

لقد بدأ المشهد هكذا . .

الله الرحمن الرحيم ، يريد أن يبعث للناس على فَتْرَة من الرسُل رسولا يردُّ الدين إلى جوهره وحقيقته ، ويُخرج الحياة الإنسانية من الظلمات إلى النور ، ومن التِّيه إلى الرُّشْد . .

ولقد اختار الله رسوله ، وهو محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام

ونزَل الوحى . . وبدأتْ رحلةُ القرآن مَسيرتَها الْمباركة .

هذا هو الموكب الجليل الذى وُكِلَتْ إليه مُهمة تغيير البشرية ، وتجديد ضميرها . . ! !

محمد . . والوحْى . . والقرآن . .

ولكن ، بدَا لى كأنما الموكب واقف يترقَّب . .

إنه ينتظر رجلاً له فى الموكب مكان شاغر ، لن يتحرك الموكب حتى يجىء . .

وهذا الرجل ليس نبيًّا . . ومع هذا فهو الذى سيُتِمُّ دَوْرَ النبى . .

وفجأة . .

غرَّدت العصافير . .

وأهلَّت البُشرى . .

وأقبل الرجل . .

وجاء أبو بكر . .! ! !

جاء الإنسان الذى سيقول للنبى دائماً ، وفى غير تَلَعْثُم أو تردُّد :

– صدَقْت . . صدَقْت . .

جاء الرجل الذى سيزامل النبى فى هجرته ؛ وهو يعلم علم اليقين أن قريشاً ستُجند لمطاردة النبى المُهاجر كل بَأسها ، وحِقدها ، وكَيْدها . .

جاء الرجل الذى سيرد المسلمين – جميع المسلمين – إلى صوابهم يوم ينْعَى الناعى إليهم رسولهم . .

جاء الرجل الذى سيُشكِّل موقفه « يوم السَّقيفة » عُمْراً جديداً يُكتب للإسلام ، ولِوَحْدة المسلمين . .

جاء الرجل الذى لولاه أيام الرِّدة لَواجَهَ الإسلام مِحْنَةَ فنائه واختفائه . .

وبعبارة واحدة :

جاء الرجل الذى كان لا بد أن يجىء ليكُون مع الرسول ، الأداةَ التى اصطفاها الله لِيُغيِّرَ بها العالَم ، ويُطهِّرَ الدنيا ، ويُقوِّم الحياة . .

هــذا هو الدوْر الحقيق لأبى بكر كما تَرَاءى لى .

وهذه الصفحات ، محاولة متواضعة . لتصوير هذا الدور الفريد ، والمجيد . .

إن « أستاذ » البشرية فى « فَنّ » الإيمان . سيُرِينا من خلال حياته وثَباتِه كل عجيب وعظيم فى فن الإيمان . . ! ! !

* * *

وبعد . .

فأى طراز من الحكام كان أبو بكر ، وكان عمر . . ؟ ؟

إنى أريد فى هذه المقدمة أن أجيب عن سؤال واجهَنى فى إلحاح إثر صدور كتابى : « بين يدى عمر » . .

لقد أرسل إلىَّ بعض القراء الكرام يسألوننى قائلين :

– كيف تُوَفِّق بين إيمانك الأكيد بالديمقراطية ، وإيمانك الأكيد بحاكم مثل « عمر بن الخطاب » الذى لا نستطيع برغم عَدله المُطلَق أن نقتنع بأنه كان صاحب حكم ديمقراطى . . ؟ ؟

وإذا أثير هذا السؤال عن عمر ، فإنه لا بد سيثار عن أبى بكر ؛ فالخليفتان فى حكمهما كانا من طراز واحد . .

والإجابة عن هذا السؤال ، وتفنيد تلك الشُّبْهة ، مِن البدَاهَة بحيث لا يحتاجان إلى إفاضة أو إسْهاب .

وعندى أن الذين يَرَوْن فى « أبى بكر وعمر » مُسْتَبِدَّيْن عادِلَيْن » إنما يجانبون الصواب .

أولاً : لأن أبا بكر وعمر لم يكونا مستبدين لحظةً من نَهار .

وثانياً : لأنه ليس فى طول الدنيا ولا عَرْضها ، شيء اسمه « مستبد عادل » . .

ولو الْتَقتْ كل أضداد الحياة ومتناقضاتها فسيظل الاستبداد ، والعدل ضِديْن لا يجتمعان ، ونَقِيضَيْن لا يلتقيان . . وإن أحدهما لَيَختفى فَوْرَ ظهور الآخر ، لأن أبسط مظاهر العدل ومَطالبه أن يأخُذ كلٌ ذى حق حقَّه ، وإذا كان من حق الناس – وهذا مُقَرَّرٌ بداهة – أن يشاركوا فى اختيار حياتهم وتقرير مصايرهم ؛ فإن ذلك يقتضى فى اللحظة نفسها ، وللسَّبَب نفسه – اختفاء الاستبداد . .

ولقد كان أبو بكر وعمر على بصيرة من هذا . . وعلى الرغم من أنهما والأمة معهما ، كانوا جميعاً خاضعين خضوعاً مطلقاً لما أنزل الله من شريعة . . على الرَغم من هذا ، فقد هيّآ للمسلمين كل فُرص المناقشة والاختيار ، حتى رأينا « مُواطِناً عاديًّا » يأخذ بتلابيب « عمر » وهو فى أوْج سلطانه ، ويقول له : اتق الله يا عمر . . ! !

وحتى رأينا هذا الخليفة نفسه يجمع المسلمين ويقوم بينهم خطيباً فيقول :

« أيها الناس ، ماذا تقولون لو مِلْتُ برأسى هكذا . . ؟

فيجيبه واحد منهم : – إذَن نقول بالسيف هكذا . .

فيسأله أمير المؤمنين : – إياى تَعنى بقولك . . ؟

فيجيبه الرجل فى إصرار : إياك أعنى بقولى . . .

فيجيبه عمر : « يرحمك الله . . والحمد لله الذى جعل فيكم مَن يُقوِّم عِوَجى » . . ! !

أهذا حاكم يُوصَف بأنه « مستبد عادل » . . ؟ ؟

ومن أين جاءت هذه الشبهة وهذا اللبس للسادة القراء الذين سألونى :

كيف أوفق بين إيمانى بالديمقراطية وإيمانى بعمر . ؟

لست أنكر أن لهذه الشبهة منطقَها . . ولكنّه مَنطق شكَّلَ نفسه فى غِياب كثير من أجزاء الحقيقة ونُورها . .

فلقد يبدو لنا أن « أبا بكر وعمر » ، لم يكونا حاكمين ديمقراطيين لأنه لم يكن إلى جوارهما تلك المؤسسات الديمقراطية الحديثة – البرلمان والدستور ، والمعارضة المنظمة ، والصحافة الحرة ...

وَوَضْع المسألة على هذا النحو ، يُشكل خطأً كبيراً .

وإنما يستقيم الفهم فى أيدينا إذا نحن أجبْنا عن هذا السؤال :

– هل كان غياب هذه المؤسسات الديمقراطية عن مجتمع المسلمين يومئذ راجعاً إلى كُفْران الخليفتين العظيمين بهذه المؤسسات . . ؟ ؟

والجواب الذى تمليه طبيعة حكمهما وسلوكهما فى الحكم هو : لا . .

وإن غِياب هذه المؤسسات لا يعنى أكثر من أنه تعبير عن العصر وعن البيئة ، وعن الحياة فى جزيرة العرب منذ ألف وأربعمائة عام .

ولستُ أرى فارقاً بين من يسأل مثلا :

– لماذا لم يكن فى عهد أبى بكر وعمر صحافة حرة . .

ومَن يَسأل :

– لماذا لم يكن لأبى بكر وعمر سفارة فى لَندن . . ؟ ؟ ! !

إن المرحلة التاريخية التى كانت يومئذ ، هى التى تجيب بَدَاهــــةً عن هذين السؤالين . .

على أن أبا بكر وعمر ، حين لم تسعفهما طبيعة الزمان والمكان فى أيامهما

بهذه الأشكال المنظمة للديمقراطية ، إنما حققَا على أوسع مَدًى ، الجوهَر الحيّ للديمقراطية من خلال الأشكال والتنظيمات التى تُلائم تطورَهم فى ذلك العهد البعيد .

فإذا كان تطور مجتمعهم يومذاك ، لم يُهيئ قيام معارضة لها كيان منظم مَهيب ، فإن المعارضة نفسها كانت تمُارَس بأسلوب فعّال ، وعَميم . .

وإذا كان التطور يومذاك ، لم يُهيئ لهم قيام « برلمان » يراقب الحكومة ويضع القوانين ؛ فإن الشُّورَى يومئذ كانت شَعيرة من شعائر الله ، وكانت حقًّا مقدساً للجماعة كلها . .

وإذا كان التطور يومذاك ، لم يهيئ لهم قيام صحافة حرَّة ، فإن الكلمة المخلصة الشجاعة كانت على كلِ لِسَان يُصغى الخليفة إليها ، ويُثيبُ عليها . .

ولو « أن أبا بكر وعمر » ، يحكمان فى عصرنا هذا ، لأعطيَا التجربة الإنسانية فى التنظيم الديمقراطى الرشيد كل احترامهما ، ولَانتفَعا بها إلى أبعد مدًى ، ولأَخذا من أشكالها الحديثة كل ما يُحقق جوهَرها ويُعبرِّ عن خَصائصها . . .

ولست أريد أن أتجنَّى على الحق ، فأقول : إن ذلك كان سيتمٌّ بصورة مطلقة .

لا . . وإنما كان سيتمٌّ دَاخل إيمانهما المطلق بالدين الذى آمنوا به . . ووَفْق الطريقة التى تَشكّلَ بها هذا الإيمان . .

ولكن ، حتى مع وجود هذا التحفُّظ ، فإن ذلك لا يَنقُص شيئاً من حقيقة أنهما حاكمان ديمقراطيان .

ذلك أن أى حاكم ديمقراطى ، إنما يعمل داخل حدود الدستور القائم

فى دولتــه . . وأبو بكر وعمر ، كانا يعملان داخل حدود الدستور القائم فى مجتمعهما . .

لقد كان للقرآن فى مجتمعهم ، مِثْلَ ما للدستور فى أية أمة ودولة بل إن ولاءهم للقرآن كان يفوق ولاء أية أمة لدستورها . . ! !

ولقد تضمَّن القرآن الكريم مزيتين من أعظم مزايا الديمقراطية — أولاهما — أنه جعل الشورى واجباً حتى على النبى الذى يُوحَى إليه ، فقال « وشَاوِرْهم فى الأمر » . . وقرَنَها بالصلاة حين نعَتَ المؤمنين بأنهم الذين : — « أقاموا الصلاة ، وأمْرُهم شُورَى بينهم » .

— ثانيتهما — أنه لم يُلزم بطاعة أحكامه واعْتناق مبادئه إلا مَن يُقِرُّه ، ويَختاره ، ويؤمن به — أىْ بلغة عصرنا الحديث — مَن يَقْترع عليه بالموافقة — أما الآخرون الذين لم يؤمنوا به ، فلهم أن يعيشوا وَفْق عقائدهم ، وتقاليدهم ، والأسلوب الذين يختارونه لحياتهم . . ! ! !

صحيح أنه دستور لم يضعه الشعب . . ولكنه دستور رضيه الشعب وآمن به ، واستشهد فى سبيله . .

فالمسلمون الذين آمنوا بالرسول وساروا معه ، آمنوا بأن القرآن وحىٌ من عند الله ، وعليهم طاعته . .

ولقد حمل أبو بكر بعد الرسول مسئولية القيادة فى المجتمع وَفْق هذا الإيمان . .

ثم حمل عمر المسئولية بعد أبى بكر وَفْق هذا الإيمان أيضاً . .

وهكذا ، فإن المعيار الصحيح الذى يُوزن به حكمهما ، هو مَدَى احترامهما لهذا « الكِتاب » الذى آمن به الناس وارتضوه قانوناً لحياتهم .

* * *

وفى عصورنا الحديثة هذه ، لا تستقيم الحياة إلا بأن تكون للأمم دساتير تَحكُم حياتها . .

دساتير تصوغها الأمة من عقائدها ، وتقاليدها ، واحتياجاتها ، وتُساير بها موكب التقدم الإنسانى المتجدد دوماً . . والذى لا يقف ولا يتقهقر

وتستطيع الأمة - أىُّ أمَّة - أن تُضَمِّن دستورها كل ما أراده الله للناس من خير وصلاح ، وكل ما دعا إليه الدين من تقوى وحق.

وفى رأيى ، لو أن « أبا بكر وعمر » ، يحكُمان الناس اليوم وَفْق دُستور رشيد وضعه الناس أنفسُهم لأنفُسِهم ، ما نقَص ولاؤهم لهذا الدستور مِثقال ذرَّة ، عن ولائهم للقرآن الكريم الذى كانا يَحكمان وَفْق هُداه . .

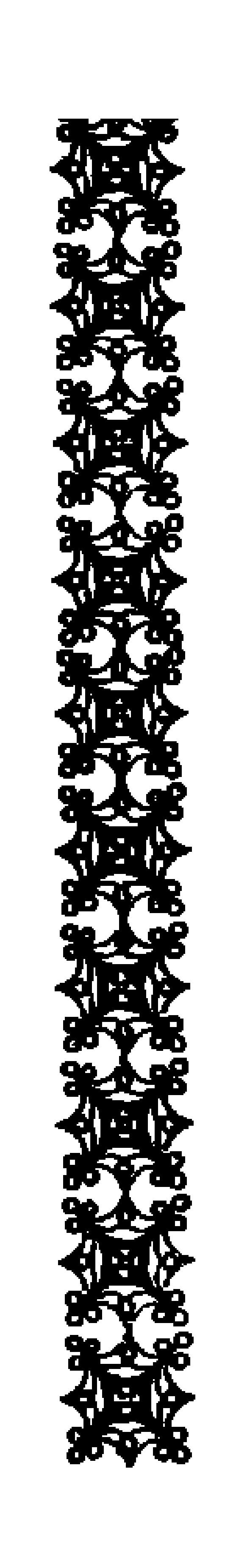
ذلك ، أنهما من الطراز البشرى الرفيع الذى يَشِيعُ فى جوهره إلى جانبِ الإيمانِ بالله ، الإيمانُ بالإنسان . .

خالد محمد خالد

الفصل الأول

لَيَبْلُغَنّ الكِتابُ أَجَلَه ..





مكة . . .

البلد الحرام الذى تتوسطه الكعبة ، موطن القدَاسات منذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . . تمضى الحياة فيها لأفحةً مثل مُناخها . . راسخة مثل جبالها . . حالمةً مثل سمائها .

وأهلُها عاكفون على عقائدَ وتقاليدَ تسمو أحياناً حتى تبلغ أوْجاً بعيداً . . وتُسِفُّ أحياناً حتى تبعث على السخرية والرثاء . . ! ! !

وحول الكعبة أصنام مَبْثوثة ، تطفلت فى غفلة الزمن على هذا الحرم الأقدس الذى ظلَّ قُروناً ولَبِث أحقاباً يمثل راية الله المرفوعة فى الأرض ، تنادى أهل الحنيفية والتوحيد . .

هى كذلك دهراً طويلا حتى جُلِبَتْ إليها الأصنام ذات يوم . ، وازدحمت حولها مع الأيام . حيث صارت مَهْوَى أفئدة قريش وما حولها . يعبدها الناس ويتّقونها ، ويتملّقونها ؛ لتُقَرِّبهم إلى الله زُلْفَى . . ! ! !

فهنا اللّات ، والْعُزَّى ، ومَنَاة . .

وهناك ، أُساف ، ونائلة ، وهُبَل . .

وعشرات سواهُن من الأوثان والأصنام . .

وإن مواكب العابدين لتَسعىَ ليل نهار إلى تلك الآلهة المجلوبة ، والمنحوتة . . الآلهة التى لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تغنى عن أحد شيئاً . . ! !

لكل قبيلة إلاَهُها وصَنَمُها .

وكل طفل يُولد ، لا يلبث حين يدرك الحَبْوَ ، حتى يُقادَ إلى ربه ليعرفه ، وليسعى إليه فيما بعد ويَبثه أمَله ونَجْواه . . ! !

وتاهت العقول فى زحمة الخُرافة . . ! !

وكان أمراً عجباً . . ! !

* فذَوُوا الأحلام الرشيدة الذين أنشأوا « حِلْف الفضول » حيث يقفون جبهة واحدة مع المظلوم ضد الظالم . . ! !

* والذين استنُّوا للسلام منهجاً فَذًّا ، وابتكروا له سُنَّة باهرة ، فأسَّسوا نظام « الأشهر الحرُم » تَقَرُّ السيوف خلالها فى أغمادها ، وتنام الأحقاد والتاراتُ نوماً عميقاً ، ويَلقى الرجل فيها قاتل أبيه أو أخيه وقد أمْكَنته الظروف منه ، فلا يَحصِبه بحصاة ، ولا يقربُه بسوء . . ! !

* والذين وضعوا للسؤدد الاجتماعى نظاماً رفيعاً ، فلا يُسمح لأحد أن يسود فى قومه إلا إذا تفوَّق فى هذه الخصال الست :

السخاء . . النجدة . . الشجاعة . . الحلم . . التواضع . . البيان . .

وكانوا يقولون : « موت ألف من العِلْية ، خير من ارتقاء واحد من السِّفْلة » . . ! ! !

* والذين كان لهم سوق عُكاظ ، يُيَمِّمون وجوههم شَطره من كل مكان ليلتقوا فيه بأشهى ثمار النبوغ الإنسانى ممثلاً فى شعر شعرائهم ، وبيان خطبائهم . . ! !

– هؤلاء المُحلِّقون عالياً ، عالياً ، تَرِينُ على أفئدتهم هذه الغفلة العجيبة ، فَيخِرُّون ساجدين أمام أصنام نَحتُوها من حجارة أو عجنوها من صَلصال . . ! !

مُفَارقات مُحيِّرة . .

ولكن ليسوا فى هذا وحدهم . .

فى « أثينا » . . وفى أزهى عصورها . . عصر الفلسفة والفلاسفة . . وعصر سقراط وباركليز ، كان أهل أثينا يعبدون آلهة الأولمب . . أصناماً كأصنام مكَّة ، بل إن أَهل مكة كانوا ينظرون إلى أصنامهم نظرة إكبار وتنزيه .

أما أهل أثينا فكانوا يعبدون آلهة خلَعوا على بعضها أسوأ الصفات . . ! ! !

* * *

ومع عبادة الأصنام التى سادت مكة ، كان هناك صنوف أخرى من العبادة تزخَر بها أنحاء الجزيرة العربية .

فكان هناك من يعبدون الشمس ، مما جعل الرسول عليه السلام حين بُعث وفُرضت عليه الصلاة ، ينهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغروب ، حتى لا يكون ذلك مُحاكاة – ولو غير مقصودة – للذين يعبدونها ، ويخرون لها ساجدين لحظة الشروق ولحظة الغروب . .

وكان ثَمَّةَ من يعبدون الملائكة . . . هؤلاء الذين ناقشهم القرآن فيما بعد فقال :

« وَيَوْم نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ ، قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهم » . .

وكان هناك من يعبدون الجن . . هؤلاء الذين سينعتهم القرآن بقوله « بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » . .

وكان منهم عَبَدَةُ الكواكب . . الذين سيؤنبهم القرآن بقوله : « وَأَنَّه هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى » . .

وكان هناك الدَّهريون الذين روى القرآن فيما بعد قولهم :

« ماهِىَ إِلَّا حَياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ ونَحيا ، وما يُهلِكُنا إلا الدَّهْرُ » . .

ملائكة . . وجن . . وكواكب . . وأصنام . . ؟ ؟

أين مِلَّة إبراهيم وَسْط هذا الزحام . . ؟ ؟

إنه منذ القرون الأولى ، هاجَر إلى هذا البلد المنيع الآمن إنسان مُتَبَتِّل ، غادرَ قومه الكِلْدانيين ، وترك وطنه وأهله فى بابل ، وجاء مكة حاملا كلمة الله . .

وهنا فى مكة حَطَّ رِحالَه ، ورفع رايته ، وهتف بالتوحيد وقال قولته الباقية :

« وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذى فَطرَ السموات والأرضَ ، حَنِيفاً وما أنا من المشركين » . .

وتَرَكَها باقيةً فى عَقِبه ، مُدَوِّيةً فى أفق الجزيرة الواسعة فماذا دهَى الناس . . ؟

وهل ضاعت الحنيفية المؤمنة المُوحِّدة ، وسط الوثنية الطارئة ، والشِّرك الزاحف . . ؟ !

وهل أَقْحَل هذا البلد الأمين ممن يُجدد للناس دينهم الأوَّل . . ممَّن يرفع صوته مُذكراً بالحقيقة الدارسة . . ؟ ؟

كلاَّ . . .

ولقد كان هناك عَبْر السنين والأجيال هُداة يبزغون بين الحين والحين ، يُلَوِّحُون براية إبراهيم ، ويرفعون أصواتهم داحِضين الشرك والزيغ . .

كانوا كثيرين — منهم من نعرف ، ومنهم من لا نعرف . .

منهم من سبق الرسول بمئات السنين ، ومنهم من كان إرهاصاً بين يدى فَجره الطالع القريب . .

مِن الأوَّلين ، سُويد بن عامر المصْطلق — جَهَرَ بعقيدة البعث ويوم الجزاء . .

وعامر بن الظَّرِب العدوانى الذى كان يقول لقومه ، — « إنى ما رأيتُ شيئاً قط خلقَ نفسه . . ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً . . ولا جائياً إلا ذاهباً . . ولوكان الذى يميت الناس الداء ، لكان الذى يحييهم الدواء » . . ؟ ! !

وكان منهم ابن تعلب بن درة ، عزَف عن عبادة الأصنام ودعا لله وحده . .

وكان هناك المتلمّس بن أمية الكِنانى . . كان يتوسط قومه عند الكعبة ويَصدع فيهم بقوله :

« أطيعونى تَرْشُدوا . . لقد اتخذتم آلهة شَتَّى ، وإن الله ربكم وربُّ ما تعبدون » . .

وكان هناك زهير بن أبى سلمى . . يُمسك أوراق الشجيرات التى اهتزت خضراء بعد أن كانت يابسة هامدة ويقول :

« لولا أن يَسبَّنى العرب لآمنتُ أن الذى أحياكِ بعد جفاف ، سيُحيى العظام وهى رَميم » . . وهو القائل :

فـــلا تــكتُمُنَّ اللهَ مـــا فى نفــوســكم
ليخـــفى ، فمهمـــا يُـكْـتَم الله يعــلم

* * *

كان ثَمَّةَ هؤلاء ، ومِثْلهم معهم . .

ولكن لم يكن معهم سوى هذا الحنين إلى الحق ، وهذا الاستشراف الحدْسِيٍّ لغايات لم يَبلغوها . .

لم يُرزق أحدهم المنهج الكامل الذى يمكن أن يدعوَ الناس إليه .

وكانوا يَبزغون ، الواحد تلو الآخر عَبْر السنين الطِّوال .

أما الآخرون الذين ظهروا قبيل بعثة الرسول ، فعلى الرغم من أنهم كانوا مثل سَلفهم بغير منهج واضح مفصَّل ، فإن رُؤياهم عن الحقيقة الروحية التى شَغلتهم كانت أكثر بياناً وإسفاراً . .

من هؤلاء : أبو قيس بن أنس – اعتزل قريشاً وأصنامها ، واتخذ له فى بيته مسجداً لا يدخله طامِثٌ ولا جُنب ، وقال : أَعبدُ رب إبراهيم . . .

وقد عاش حتى بُعث النبى فأسلَم معه . .

وكان هناك ثلاثة تركزت فيهم كل قُوَى الإرهاص بالدين المقبل هم :

قَسّ بن ساعدة الإيادى . .

وزيد بن عمرو بن نُفَيل . .

وَوَرقَة بن نَوفل . .

انعقدت أواصِرُ قُلوبهم على دين إبراهيم ! !

وانْسابتْ من أفئدتهم الضارعة : كلماتُ التوحيد كأنسام الربيع وَسْطَ الهجير الوثنى المتسعِّر . . ! !

كانوا يغنون للنبى القادم . .

كانوا يبشرون بالفجر الطالع . .

كانوا يؤذنون بالدين المقبل الذى سيعيد راية الله إلى مكانها ، ويُسوِّى بالأصنام التراب . . ! !

وإلى هؤلاء جلس أبو بكر طويلا . . .

ولكلماتهم الرطبة المؤمنة ألقى سمعه . . .

وبغنائهم العذْب ثَمِل . . .

وعلى حُدَائِهم سار . . .

وفى ضياء حكمتهم الوُثْقى ، وهُداهم المَكين ، أبصرت رُوحُه الطاهرة موكبَ النبوة القادم ، فجلس ينتظر ، ويُعِدّ نفسه لأيام الهُدى واليقين . ! !

ولْنبدأ سيرنا فى صحبة الرجل العظيم من ذلك الحين . .

* * *

هذا الرجل الذى يَشغل بين قومه مكانة مرموقة أهَّله لها كِفايته وحَسبَه ، يحمل فى ذات نفسه شكًّا مُضيئاً . . . شكًّا يُرْبِى فى قلبه يوماً فَيوماً العزوفَ عن وثنية قومه وضلالهم .

وإنه لَيمُرُّ بالناس مُتحلِّقين حول أصنامهم ، وجَاثِينَ أمامها فتكْسُو وجهَه سحابةُ أسفٍ مرير ، ويسأل نفسه :

أيمكن أن يكون هذا صَواباً وهُدًى . . ؟ ؟

أناس ينظرون ، ويسمعون ، ويعقلون . . يخرون سُجَّداً أمام حجارة مرصوصة لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تُبين . ؟ ! !

ثم يردد قول زين بن عمرو بن نُفَيل .

أربًّا واحداً . أم ألــف رب أدِينُ إذا تقسَّمت الأمور؟؟

ويطول التَّسآل ، وتزدحم النفس بالقلق ، ويُبرِّح طـول الانتظار

بالرجل المنيب الأوَّاب ، الذى ينزع إلى معرفة الحق نزوعاً حثيث الخُطى مضطرماً بالرغبة فى التغيير ، والشوقِ إلى كلمة الله التى سيَفْصِل مجيئها فيما اختلف الناس فيه . .

ويَحمله حنينه ، وتقوده أشواقه إلى الذين عندهم عِلمٌ من الكِتاب . . الذين يعيشون فى ذِكريات العقيدة الدارسة التى صَدَح بها هنا ذات يوم بَعيدٍ خليلُ الله إبراهيم . . والذين شَغلهم المصير الإنسانى ، فرفعوا أصواتهم بعقيدة البعث والجزاء .. والذين طهروا قلوبهم تطهيراً من كل ولاءٍ لصَنم وآمنوا برب إبراهيم .

هؤلاء الذين يُقلِّبون وجوههم فى السماء ، وتَخرج الكلمات من أفواههم كالأحلام السعيدة .

أَىُّ حديث يَبهر « أبا بكر » ويستهوى لُبَّه خير من حديث هؤلاء . . ؟ !

إن كلماتهم حين يَلْقَفُها سمعه ، لتَرِنُّ فى رُوعه رنين الصدق

وإنه ليتَتَبعُها كما يتتبَّع الطير الظامئ مَواقع القطر والنَّدَى . .

وهكذا كان يَسْتَرْوِحُ دوماً كلما أسعفه وقته بالجلوس إلى هذا النَفَر الصَّالح . .

قُسّ بن ساعدة – زيد بن عمرو – ورَقة بن نوفل . . . لم تكن قريش قد شَطَّت فى عداوة هؤلاء واضطهادهم .

لأنهم – أولاً – كانوا عاكفين على أنفسهم لا يحملون دعوة منظمة ولا ديناً جديداً يُهدد دين قريش وتقاليدها . .

ولأنهم – ثانياً – كانوا فى مُرتفعات أعمارهم ، فقد أوشكت حياة كل منهم على الغروب . .

ولكنَّ إعجاب رجل كأبى بكر – مجرد الإعجاب – بهؤلاء وبأفكارهم ،

يُعرِّضُه لاستنكار قريش لا محالة .

فهو فى ربيع العمر المرتَجَى . .

وهو سيد فى قومه الذين أولَوْه عملا من أهم وأجل أعمالهم . . فهو يومئذ « حاملُ الدِّيات » . .

ويفكر أبو بكر فى هذا . .

يفكر فيما يمكن أن يلحق به من ضُرٍ ، إذا هو خرج عن الصفوف المزدحمة ، وعَلِمَ الناس منه حَفاوته بأفكار قُسٌ وورقة ، وزيد . .

إن قساًّ ، وورقة ، وزيداً ، .قد وضعوا عن كواهلهم كل علاقاتهم بالجماعة ، فلا يَخشوْن بأساً . ومع هذا فإن قريشاً ، وإن لَمْ تُناصِبْهم العداء ، لتَعملُ جاهدة على كَبْح جماحهم ، وكلما ارتفع صوت زيد بن عمرو – وكان أعلى الثلاثة صوتاً – أَغْرَوْا به قريبه الخطَّاب بن نفيل ، فأغلق عليه داره وحال بينه وبين الناس . . ! !

فكيف بأبى بكر ، وعلاقاته بالجماعة مشحوذة ونامية ، وهو فى قومه مِلْءُ كل عين وكل أُذن . . ؟ !

أَتأْذَنُ له قريش ولو فى مجرد انطوائه على أحلامه الجديدة ، ورُؤياه الصَّامتة . . ؟ ؟

وقبل أن يطول التردُّد بأبى بكر ، تلتمع خواطره ، فيرى القدوة والمثَل . . .

محمد بن عبد الله . . ! !

إنه فى ربيع العمر والحياة ، وإنه حَسِيبٌ نَسِيب ، وإنه فى قومه كألمع دُرَّة فى التاج . .

ومع هذا ، فهو – فى هدوء – قد عَزَف عن الأصنام ، وإنه لَيقضى أيامه بعيداً عن معابثِ الناس وعاداتهم . لا يكاد يلقى أحداً ولا يَدعُ أحداً

يختلس منه وقته ، وأحلامَه ، وسكينةَ نفسه . . يتعبَّد اليوم بالتأمُّل ، حتى تأتيه عن الحق بيِّنة . . .

ويطمئن أبو بكر . .

إنه يستطيع أن بسلك الطريق نفسه دون أن تكون لقريش عليه ثورة أو مَوْجِدَة . .

مثل « محمد » تماماً . .

إنه لا يذكر الأصنام بسوء بعد . . ولكنه أيضاً لا يذكرها بخير . .

لا يعبدها مع العابدين ، ولا يسجد لها مع الساجدين ، ولا يتقرب إليها ، ولا يحِس بوجودها . .

لقد جرَّد من نفسه أمَّةً وحده ، ومضى يبحث عن الحق ، وهذا أعظم غرض تُناط به حياة إنسان .

وسرى فى أوصال نفسه بَرْدُ اليقين .

فأبو بكر ، وإن يكن تجمعه ومحمداً سِنٌّ واحدة ؛ إلا أنه يرى فيه مثلاً أعلى وقدوة تدعو إلى الثقة . .

ولقد كان لهذا حريصاً على صحبته ، حَفِيًّا بزمالته ، حتى لقد كان كما وصفته أم سلمة : — « خِدْناً لمحمد وصَفِيًّا له » . .

تذكَّر أبو بكر حال صديقه وصفيِّه ، فتبددت مَحاذِرُه من قريش ، وقرر أن يستجيب لحنينه ، ويمضى مع أشواقه إلى الحق والمعرفة .

ولكن نهجه سيختلف عن نهج صفيِّه « محمد » . .

تماماً ، كما ستختلف النتيجة بالنسبة لكليهما ؛ فبينما يبحث « أبو بكر » عن الحقيقة . إذا « محمد » يَجِدُها . . ! !

إن منهج « محمد » هو التأمل ، والإصغاء إلى الهمس الآتى من داخل الحقيقة ذاتها . .

أما « أبو بكر » فمنهجه التفكُّر ، والإصغاء إلى حِكمة الحُكماء ومنطق العابدين المبصرين . .

وهو طوال عمره مُولَع بحفظ روائع الثقافة العربية من شعر ونثر . .

ومن محفوظاته الثَّرة الغنيَّة يُمِدُّ عقله بأسباب التفكير . .

وهكذا بينما يعكُف « محمد » على تأملاته ، ويتلَمس الحق عن طريق حَدْسه وتجربته ورُؤاه . .

إذا أبو بكر يُسْلِم قلبه وعقله للحكمة التى يَبرق سَناها فى كلمات هذا النفر الصالح ذوى التجربة السديدة المديدة – قُسٌّ ، وورقة ، وزيد . .

ولا يترك فرصة تمكنه من التلقى عنهم والإصغاء إليهم إلا اهتَبَلَها وفازَ بها . .

وإنه لَيحفظ أقوالهم حفظاً راسخاً ، ويعيش فى رُؤاهم عيشة تُساعدُه عليها فِطرته العُظمى التى تريد أن تعرف الحق وتبلُغه مهما يكن الثمن . . والتى رأت فى هؤلاء بحكم سنهم وبحكم تجربتهم وحياتهم الطاهرة دليلا قوياً إلى الحقيقة المرجوَّة . .

* * *

ذات يوم ، بعد أن تلقى « محمد » رسالة ربه ، وآمن معه « أبو بكر » كان الرسول جالساً بين أصحابه يَستعيد ذكرى أيام شبابه فقال : « لستُ أنسى قسَّ بن ساعدة ، ممتطياً جَملاً أورق ، فى سوق عُكاظ ، وهو يتحدث حديثاً ما أحسبنى أحفظه » . .

فقال أبو بكر : إنى أحفظه يا رسول الله ، كنت حاضراً ذلك اليوم فى سوق عكاظ . . ومن فوق جمله الأورق وقف قس يقول :

« أيها الناس : اسمعوا ، وَعُوا ، وإذا وَعَيْتُم فانتفعوا . .

إن من عاش مات ، ومَن مات فات . . وكل ما هو آتٍ آت . .

« إن فى السماء لخَبَراً ، وإن فى الأرض لَعبَراً . .

« مِهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تَمُور ، وبحار لن تغور . .

« ليل داج ، وسماء ذات أبراج . .

« يُقسم قسّ ، إن للهِ لَدِيناً هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه . .

« مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون . . أرضَوا بالمقام فأقاموا . . ؟ أم تُركوا فناموا . . ؟ !

ثم أنشد أبو بكر شعر قس بن ساعدة .

فى الذاهبين الأولــــين ... من القرون لنا بصــــائر
لمـــــا رأيتُ موارداً ... للموت ليس لهـــا مَصادر
ورأيتُ قومى نحوَهـــا ... يَسعى الأكابر والأصاغر
أيقنتُ أنى لا مَحــــ ... الةَ حيث صار القومُ صائر

* * *

هكذا كان أبو بكر يحفظ لهذا النفر الصالح ويتلقى عنهم . .

وهكذا كانت روحه عاكفة على ما يبثونه من حكمه . .

ولكم كانت غِبطة نفسه ، وحُبور روحه يتألقان أعظم الألَق حين يُبصر زيد بن عمرو بن نفيل فى جَلالِ مشيبه ، مُسنداً ظهره إلى الكعبة ، منادياً الناس :

— « يا معشر قريش ، والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى . .

« إنى اتبعت مِلَّة إبراهيم وإسماعيل من بعده . . وإنى لأنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل ، ما أرانى أُدركه » . .

ثم تقع عينه على عامر بن ربيعة فيناديه :

— « يا عامر بن ربيعة . .

« إن طالت بك الحياة فأقرئه منى السلام » . .

كان « أبو بكر » يزداد طمأنينة وأَمْناً . كلما رأى « زيد بن عمرو » يشق صفوف الناس المتحلقين حول الكعبة ويرفع عَقيرته فى غير تهيُّب قائلاً :

« لبَّيْكَ حقًّا حقًّا . .

« تَعبُّداً ورِقًّا . .

« عُذْتُ بما عاذَ به إبراهيم . .

وأسلَمتُ وجهى لمن أسلمَتْ ... له الأرض تَحمل صَخراً ثِقالا

دَحاها ، فلما رآهــا استوَتْ ... على الماء أرسَى عليها الجبالا

وأسلمتُ وجهى لمن أسلَمتْ ... له المُزْنُ تَحمِل عَذْباً زُلالا

ويحدث أبو بكر نفسه :

هذا وربٍّ إبراهيم هو الحق . . ولكن كيف ومتى نصبح منه على يقين . . ؟ ؟

ويوماً فيوماً ، كان وجدانه يمتلئ برُؤَى التبتُّل والنُسك ويَشغَفُه الحنين إلى دين إبراهيم . .

ولكن أين الطريق . ؟

إن الذين زكَّوْا فى روحه ووعيه هذا الشوق هم أنفسهم لا يعرفون .

صحيح أنهم على يقين بأن قريشاً ليست فى دينها على شىء من حق . وأنها أخطأت دين إبراهيم .

ولكنْ ، ما المنهج الجديد الذى يعود إبراهيم من خلاله بدينه وحقيقته . . ؟

إنهم لا يعرفون . .

لقد مات قسّ بن ساعدة دون أن يعرف .

وَذَانِكَ صاحباه لا يعرفان .

أمّا ورقة ، فإنه عاكف على الأناجيل يتلوها ويَدرسُها عَساها تدلُّه على دين إبراهيم . .

وأما زيد ، فهائم مع أشواقه المؤمنة ، مُنطلق فى بِطاح مكة تارة . . ولائذٌ بالكعبة تارة أخرى . . ومُناجٍ ربه دوْماً :

— « اللهم لو أنى أعلم أىَّ الوجوه أحب إليك لَعبدتُك به ، ولكنى لا أعلمه » . .

إذن هو لا يعلم ، وإن كان قد أعلن الملأ من قريش أنه فارق دينهم . واعتزل الأوثان والأنصاب ، ووأْدَ البنات ، وأجاب حين سُئِل عن ربه الذى يعبده :

« أعبُدُ رَبَّ إبراهيم » . . .

وتزداد الأشواق العارمة إلى الحقيقة ازدحاماً فى رُوح « أبى بكر » فهو بفطرته لا تروى ظمأه أنصافُ الحلول ، لقد اتضحت له مَعالم الأزْمة التى يعانيها الضمير الإنسانى فى قومه . .

وهو الآن يريد جميع الحَل ، وجميع الخلاص . .

أجَلْ هذه هى الأزمة . . الانحراف عن دين إبراهيم إلى وثنية ضالة خاطئة . .

والمَخرج إذن ، هو دين إبراهيم . .

فمن يَدلُّنا عليه . . ؟ ؟

إن أكداساً من الأساطير والرواسب قد طَمرتْ حقيقة هذا الدين فى زِحامها وتِلالها . .

وليس أدلّ على هذا ، من أن الذين يعبدون الأصنام هنا – فى مكة – يزعمون أنهم أبناء إبراهيم . .

ويَهُود الشام ونَصاراه ، الذين كان يراهم فى رحلاته التجارية يزعم كل منهم على ما بينهم من تناقض أنهم أبناء إبراهيم وورثته . . ! !

فمن يأتينا بالحق المُبين . . ؟

مَن يُعيد إلينا إبراهيم ، ويُعيدنا إليه . . ؟ ؟

مَن يدلّنا على الشِّرعة والمنهاج اللذيْنِ نعبد بهما ربنا الحق ، وتقوم بهما حياتنا . . ؟ ؟

وتتوالَى الخاطراتُ الذكية على القلب الذكى ، ويردد أبو بكر قول أمية بن أبى الصَّلْت .

ألاَ نَبيٌّ لنــا منّــا فَيخبرنـا ما بعدَ غايتنا من رأس مجرانا

إنى أعوذ بمن حَجَّ الحجيج له والرافعون لدين الله أركانـــا

إن اختلاف الناس فى دينهم يَقُضُّ تفكير أبى بكر

وغياب الحقيقة بينما الناس فى أشد الحاجة إليها ، واللهفة عليها ، أمر يأسَى له أبوبكر مُنتهى الأسى . .

وأنه لَيُجيل بصره بين قومه ويتساءل :

أليس فينا من يجمعنا على الحق بعد أن يدلنا عليه . . ؟

وفجأة يومض فى خاطره ذلك المشهد الباهر الذى رآه من قُرابة أعوام خمسة . . .

حين أتمّت قريش تجديد الكعبة ، وهَمُّوا ليعيدوا الحجر الأسود إلى مكانه ، فاشتَجَر بينهم خلاف كاد يُغرق قريشاً كلها فى الدم ، وكاد يُنْشِب فيها حرباً أخرى كحرب الفِجار . .

وعاد المشهد كله يَزْحِمُ خواطر أبى بكر . .

فها هى ذى بطون قريش جميعاً ، تتحول إلى شِيَعٍ مُتربصة تُقسم كل شِيعة ليكونن لها دون سواها شرف رفع الحجر المقدس إلى مكانه .

وإذْ يحتدم الخلاف ويبلغ ذُروته ، يُشير أُمية بن المغيرة أكبر قريش يومئذ سنًّا ، يُشير على الناس أن يُحكِّموا بينهم أول قادم . . ويرتضون حكمه ، ويترقبون مَلِيًّا ، ويحتويهم صمت رهيب ، لا يُسمَعُ خلاله إلا صوت الدم فى الأوردة والعروق . ! !

ويسترسل أبو بكر مع ذكرياته فى حُبور . .

ها هم أولاء قابعون هناك . .

أشراف قريش ، والقبائل كلها . .

وقد سُمِّرتْ أبصارهم شَطر القادم الجديد . . أولِ مُقْبلٍ عليهم . . هذا الذى سيحسم مجيئه خلافهم ، ويَعصم دماءهم .

وفجأةً يسمعون وقع خطوات ، كأنها نداء النجدة . .

وتضطرم الأنفاس . .

ويقترب القادم . .

يقترب المنقذ . .

وإذا هو – « محمد الأمين » . . . ! !

ولا يكادون يبصرونه حتى يَصيحوا فى غبطة :

هذا الأمين « محمد » ، نِعم الحكَم هو . .

ويُتمتم أبو بكر ، والذكرياتُ تَبهر خاطره فيقول لنفسه :

– وكان نِعم الحكَم حقًّا . .

ثم يسترسل فى ذكرياته ، وكأنه يناجى نفسه :

أجل ، كان نِعمَ الحكَم ، ونعم المَلاذُ .

فما كاد يسمع أسباب نزاعهم حتى قال لهم :

– هَلُمُّوا إلىَّ ثوباً . .

فجاءوه بثوب . . وضع الحَجر فى وسطه ثم نادى :

– لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ،فاستجابوا له حتى اقترب الحجَر من موضعه ، فأخذه محمد بيده فأرساه مكانه . .

وانتهت أسعدَ نهاية ، فتنةٌ كانت تنذر بشر وبيل . . ! ! !

وعاد أبو بكر يسأل نفسه :

– أوَلَا رجل يجىء ، فيحسم الخلاف مرة أخرى . ويُبيِّن للناس ما اختلفوا فيه من الحق . . ؟ ؟

رجل يرد إلى قريش نُهاها . وتمضى معه إلى عافيتها وهُداها . .

رجل يعطيهم من السلام ، واليقين ، والعقل ، مثلما أعطاهم « محمد » يوم كاد خلافهم حول الحجر الأسود يُفْنيهم فى معركة مجنونة . . ؟ ! !

واستجاشَتِ الذكرى السعيدة كل الابتهالات ، والنبوءات التى طالما سمعها من قس ، وزيد ، وورقة بن نوفل . . والتى كان يحفظها للسابقين من أمثال أمية بن أبى الصلت ، وعامر بن الظرِب ، والمتلمس بن أمية . .

واقترب مشهد فريد . ظل يقترب ويَكبُر حتى ملأ الشاشة كلها . .
مشهد قسّ بن ساعدة ، وهو قائم بين الناس مُلَوِّحاً بذراعه المبسوطة فى الأفق كأنها راية ، ويقول :

– يُقسِم قُسٌّ بربه لَيبلُغَنَّ الكتاب أجلَه . .

وودَّع أبو بكر موكب ذكرياته وهو يتمتم فى يقين قائلا :

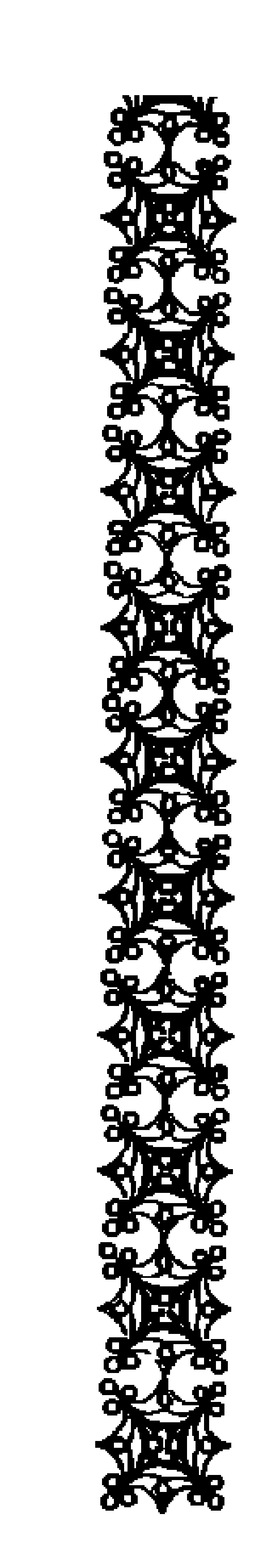
– صدق ابن ساعدة . .

لَيبلُغن الكتاب أجلَه . . ! !

الفصل الثاني

إنْ كانَ قال ، فقد صَدق ..





. . وتمضى الأيام طاوية أشواق الذين يؤمنون أو يُحسّون أنهم على موعد مع الغيب عظيم .

ويصبر أبو بكر حتى يأتى الله بأمره .

ويُقبل على شأنه وتجارته ، وإذْ يَحين أوانُ رحلة جديدة إلى الشام ، يشدُّ رحاله مع صَحْب له من التجار . وتيمِّم القافلة وجهها شطر البلاد البعيدة ساعية وراء الرزق والربح الحلال .

وفى الشام يجد أبو بكر « مُناخاً روحيًّا » شبيهاً بمناخ قومه . .

أديان شتَّى ، وناس تائهون ، وقِلَّة مؤمنة تُقلِّب وجوهها فى السماء راجية منها اليقين ، ومُرسلة أطرافها فى آفاق الأرض ، وكأنها تريد أن ترى من أى أقطارها سَيُهِلُّ النذير المنتظر . .

وأبو بكر فى الشام مِثلُه فى مكة . لا يكاد يُنجز عمله مع أهل مهنته من التجار حتى يُبادر ويُسارع إلى نَفرٍ من الأحبار والرهبان . تعرَّف إليهم خلال رحلاته ، وأنِسَ منهم عُزوفهم عما عليه الناس من باطل ووهم .

ورضِيَ منهم بحثَهم عن الحق ، وانتظارهم لِبُشْرىٰ الله المقبلة .

فَمِن هؤلاء فى الشام ، كان يسمع نفس اللَّحن العذب المبشر بمقدم رسول الله ، والذى سمعه بمكة من ورقة بن نوفل وإخوانه . .

لقد أخذ هذه المرة يتردد على هذا النفر الصالح من رهبان الشام أكثر من أية مرة سالفة .

* * *

ولا بد أن قلبه آنئذ كان يجيش أكثر من ذى قبل بمشاعر الحنين النامى إلى الفجر القريب . .

إن أبا بكر لينتظر الرسول المقبل فى لهفة غَلاَّبة ، لا لأنه سيهتدى به وحده إلى الحق . . بل لأن الناس جميعاً سيهتدون به من ضَلالة ، ويُفيقون به من غفلة .

وأبو بكر الأوّاب ، المحِبُّ الودود ، يودُّ الحياة الصالحة لكل حىّ .

وفؤاده الذكى ينطوى على رغبة غامرة فى أن يُسدى إلى الناس الخير الذى يحتاجونه . . لا الخير الذى يملكه . . ! !

وإنه إذ يملك المال والجاه ، يُنفق منهما بغير حساب .

بَيْدَ أنَّ الناس لا يحتاجون إلى المال وحده ، ولا إلى الجاه معه .

إنهما مع ذلك ، بل قبل ذلك يحتاجون إلى الهُدى والنور .

وهو لا يملك من الهُدى واليقين ما يقدمه للناس . . صحيح أن معه مَكارمَ الأخلاق ، وإنه فيها وبها لمَثَلٌ أعلى وقدوة سامقة . .

لكنّ الهدى الأعظم لا يزال ينقصه ، وينقُصُ الناس .

التعرف إلى الحقيقة . . إلى السرِّ الأكبر الذى يحيط بالحياة ،

ويُحرِّك الكون . . وبكلمة واحدة – الله . . ! !

فأين إلى الله الطريق . . ؟ ؟

وتزدهر خواطره وتتألق . .

إن فى الأرض كثيرين يتملكهُم ذات الحنين إلى معرفة الله الحق .

فى الشام ، وفى مكة ، وفى غيرهما من بلاد الله الواسعة .

كثيرون يؤرقهم الشوق إلى أن يعرفوا .

كثيرون تَهْوِى أفئدتهم مطالع الضوء ، منتظرين أن تُشرِق عليهم فجأة كلمة الله .

أَوَيتخلَّى الله عن عباده هؤلاء . . ؟ ؟

أيتركهم حيارى تائهين ، وقد بسطوا إليه سبحانه رجاءهم . . ؟

أبداً . .

وإن الله لأَرحَمُ من أن يغيب عن الذين يبتهلون إليه ليعرفوه .

سيجيء الهُدى إذن ، لا محَالة . .

وسَيطلعُ على الناس فى فجر قريب ، من يقول لهم – صادقاً – « إنى رسول الله إليكم » . . .

ولكن من أين يا تُرى يجيء . . ؟ !

إن الذين عندهم عِلم من الكتاب ، فى الشام وفى مكة ، لَيكادون يُجمعون على أنه سيُهِلُّ على الدنيا من هُناك . . من حيث رفع إبراهيم القواعد من البيت . .

من مكة . . وطن الكعبة العظيمة . ! !

ولكنَّ مكة تموج بعبَدَةِ الأصنام . . بالعاكفين على الميْسر والأنصاب والأزلام ، وكلٍّ رجس من عَمل الشيطان . .

أفلا يجد الله فى أرضه الواسعة سوى هؤلاء ليختار من بينهم رسوله . . ؟ ؟

ولكنْ أيُّ بأس فى هذا . . ؟ ؟

وهل يدخل الأطباءُ إلا بيوت المرضَى . . ؟ ! !

وحيث تَقضى الوثنية الضّاريةُ على كل أمل فى التوحيد ، أَلاَ تكونُ الحكمة عظيمة . . فى أن يَخرج من المكان نفسه من يرفع راية التوحيد . . ؟؟ !

ثم إن فى مكة قوماً على الرغم من وثنيتهم يحملون تُراثاً أخلاقيًّا نادر المثال . .

* فمَنْ مثلهم يَحمى الذمار ، ويكرم الضيف ، وينصر المظلوم ، ويُعين على نوائب الدهر . . ؟ ؟

* مَن سِواهم من الأمم ، لهم أشهر حُرُم ، تتحول السيوف فيها إلى أغصان . . ؟ ؟

* مَن مثلهم يُوقدون النيران شاهقة عالية ، لِتدلَّ الضيف وتُناديه . . . ؟ ؟

* مَن مثلهم يقول السيد فيهم لعبده :

– « إن تجلُبَنْ ضيفاً ، فأنت حُرٌّ » . . . ! !

من أُوتِىَ من الحكمة ما أُوتوا . . ؟ ؟

هؤلاء الذين أنجبوا امرأ القيس ، وزهير بن أبى سلمى ، والنابغة الذبيانى ، وطَرفة بن العبد ، وأمية بن أبى الصلت ، ولبيد بن ربيعة ، وكعب بن زهير ، وقس بن ساعدة ، وسَحبان وائل . . ؟ ؟

ويستطرد أبوبكر مع خواطره . .

وتتراءى له أبهى فضائل قومه ومزايا أمته . .

أهناك قوم وُهبوا من صدق الفِطرة ما وُهب العرب . . ؟ ؟

إنهم قومُ صِدق ، لا مكان للزيف ولا للكذب فى حياتهم وسلوكهم . .

صادقون فى فضائلهم . . وصادقون فى رذائلهم . . ! !

إن حياتهم واضحة وُضوح الصحراء التى يفطنونها ، والسماء التى فوقهم . .

ومن صدقهم هذا ، ووضوحهم ، جاءتهم الحكمة ، وقَدَروا على العِرافة ، وتعلموا لُغة الأشياء الصامتة فى الحياة . . ! !

وتتوالى الخواطر الرشيدة فى وعى نَسَّابة العرب وحافظ حكمتها ويمضى كأنه يحدث نفسه :

هذا هو قُسُّ بن ساعدة . . هذا ورقة بن نوفل . . هذا زيد بن عمرو ابن نفيل . . ومن قبلهم عشرات وعشرات عَمَرَتْ بهم الأجيال والسّنون — كلهم استنكفوا عن عبادة الأوثان ، وشَقُّوا عصا الطاعة عن دين قومهم وما يعبدون ، وهتفوا بدين إبراهيم ، وتطلعوا إلى السماء ينتظرون كلمة الله ، وما منهم من أحد إلا تمنى أن يكون النبىَّ المنتظر . . ومع هذا لم يَدَّعِ النبوة منهم أحد . . ! !

ولقد كان إيمانهم وطُهرهم وسلوكهم . .

وكانت ثقة الناس بهم مَدْعاةً لتصديقهم لو ادَّعى أحدهم النبوة وقال إنى رسول من عند الله .

كان الذين ينأَوْنَ عن عبادة الأصنام سيسارعون إلى اتباعهم فلماذا لم يدَّع النبوة من هؤلاء واحد . . ؟ !

لأنهم صادقون . .

أجل . . إن أعظم مزايا قومنا ، الصدق والوضوح . .

وإن العربى ليستنكف أن يكذب على ناقته فيقول لها ، وقد هاجَها الظمأ الشديد .

أُريد أُمَنِّيكِ الشراب لتهدئي ولكنَّ عارَ الكاذبين يَحُولُ

أفيخجل العربي العادى أن يكذب على ناقته . . ثم يكذب على الله أولئك الحُنفاء المتطهرون . . ؟؟ ! !

نحن إذن أهل صدق عظيم . .

وهل يكون النبي إلا صادقاً . .

فلماذا لا تكون هذه النبوءات حقًّا . . ؟ النبوءات التى تكاد تجمع على أن النبي القادم سَيُهِلُّ على الناس من جوار الكعبة ، بيت الله العظيم . . ؟ ؟

* * *

كانت الخواطر تغدو وتروح على هذا النحو فى وُجدان أبى بكر وعقله .

والآن ، وقد أنجز أعماله فى الشام فإنه يتهيأ للعودة إلى وطنه وبلاده .

وقُبيل رحيله بأيام قليلة يرى رؤيا . .

يرى القمر قد غادر مكانه فى الأفق الأعلى ، ونزل على مكة حيث تجزّأ إلى قطع وأجزاء تفرقت على جميع منازل مكة ، وبيوتها . ثم تضامَّت هذه الأجزاء مرة أخرى ، وعاد القمر إلى كِيانه الأول ، واستقر فى حجر أبى بكر . . ! !

صَحا من نومه ، وللرؤيا على وعيه سلطان مبين .

وسارَع إلى أحد الرهبان المتقين الذين أَلِفَهم ، وعقد معهم من صلات الرُّوح ما كانت تَقَرُّ بِهِ عينه .

وقصَّ عليه الرؤيا ، فتهلَّل وجه الراهب الصالح وقال لأبى بكر :

لقد أهلَّت أيامه . . ! !

ويتساءل أبو بكر :

مَن تعنى . . ؟ النبي الذى ننتظر . . ؟ ؟

ويجيبه الراهب :

نعم ، وستؤمن معه ، وستكون أسعد الناس به . . ! !

لم تكن رؤيا أبى بكر مُجرد حديث للنفس فى منامها ، ولا مجرد تعبير عن أشواق مُسْتَكِنَّةٍ فى « لَا شُعُورِه » . .

بل كانت إرهاصاً بحقائق وطيدة راسخة أمْلَتْ على صاحبها يقيناً لا يتزعزع بحاجة الناس إلى رسول ، وبِحَتْمِيَّةِ مجىء هذا الرسول . .

وكانت رُؤياه هذه ، بُشْرى بين يدى يَقِينِه ، وتحيَّةَ الغيب لروحه المتطلعة وإيمانه المتلهف . .

وهو حين يختار الله محمداً للرسالة .

وحين يسارع أبو بكر إلى الإيمان به ومعه ، فلن يفعل لأنه رأى رؤيا . . بل لأنه رأى رؤية . . رؤية عقل ، ومنطق ، وبصيرة أتاحها له طول تَفكُّره ، وطول إصغائه للحكمة ، وأفاءَها عليه – قبْلا – سَبْقُ اصطفاء الله له ، وهدايته إياه . . ! !

* * *

ومع الصَّباح شدَّ أبو بكر رِحالَه مع القافلة العائدة إلى مكة ، كانت النُّوق والجمال تهرول ، فَرِحةً مُنتشِيةً كأنها فى عيد . .

وهبَّت نسائم حُلوة تحمل إلى الركبِ عِطْر بساتين الشام ، وكأنها تحيَّة الوداع تَنْثالُ وراءهم من البلد الطيب الذى غادروه من ساعات . .

وعزَف الحنين المستيقظ على أوتار القلوب المشتاقة ، فَغَرَّدتْ كل جارحةٍ فى جسم ، وانطلق الركب يُسابق أشواقه . .

وارتفع صوت حَادٍ يُنْشِدَ :

سأقدح من قِدرى نصيباً لجارتى — وإن كان ما فيها كَفافاً على أهلى
إذا أنت لم تُشرِكْ رفيقك فى الذى — يكون قليلا ، لم تُشارِكْه فى الفضل

ويحييه صادِح آخر ، وكأنها مُباراة :

أيـا ابنة عبـد الله وابنـــة مالِكٍ — ويا ابنة ذى البردين والفرَسِ الورد
إذا ما صَنعْتِ الزاد فالْتمسى لــه — أكيلاً فإنى لستُ آكِلَه وحدى
أخاً طارقاً ، أو جارَ بيت فإننـــى — أخاف مَذمَّاتِ الأحاديث من بعدى
وإنِى لَعبدُ الضيف ما دام ثاويــاً — وما فِيَّ إلا تلكَ مِن شِيمَةِ العبد

ويُخرِج هذا التغريد الحلو أبا بكر من صَمْت نفسه ، وتتألَّق أمامه من جديد فضائلُ قومه . . هؤلاء الذين يَعُدُّون مِن مَذمَّات الحياة ونقائصها أن يأكل الرجل وحده دون أن تَهبه الحظوظ الحسنة ضيفاً يأكل معه . . ! !

وتتعالَى أناشيد الركب وتتبارى قصائده . .

وترتفع فى السماء ذِراعُ أبى بكر كأنها راية ، ويعلو صوته قائلا :

– أيُّكمُ يُنشدنا قولَ أُميَّة بن أبى الصَّلْت . . ؟

ويجىء صوت من طرف القافلة :

– أى قوله تريد يانسَّابَة العرب ، فإنَّ لأُميَّةَ قولا كثيراً ؟ ؟

ويجيبه أبو بكر : ألاَ نَبيٌّ لَنا . .

ويرتفع صوت الرجل مُنشداً قصيدة أُميَّة :

ألاَ نَبيٌّ لَنا مِنا فيخبرنـــــا — ما بعد غايتنا من رأس مَجْرانَا
فقد علمنا . لوَ انَّ العلم يَنفعنا — أنْ سوف يلحق أُخرانا بأُولانا
وقد عجبت وما بالموت من عجب — ما بالُ أحيائنا يبكون موتانا

وتزداد الإبلُ هُياماً ، وتضطرم بالحُداء نَشوة ، فتقطع الأرض وَثْباً . .

وتهتز أفئدة المسافرين غِبطةً وأملا . .

ومَن يُلقى عينيه ساعتئذ على وجه أبى بكر المتألق تحت ضوء الحكمة ، يبصر دُموع الشوق تتحدَّر متألقة على وجنتيه كَحبٍّ الجُمان . . ! !

ويستمر المنشد فى إنشاده قصيدة أُميَّة :

يا رب لا تجعلَنِّــى مُشركاً أبداً · واجعل سَريرةً قلبِى الدهرَ إيمانا
إنى أعوذ بمَنْ حَجَّ الحجيجُ لــه والرافعون لِدين الله أركانـــا
مُسَلِّمين إليـــه عنـد حجهموا لم يبتغوا بثواب الله أَثْمانـــا

وتمضى القافلة إلى غايتها ، تَبيتُ إذا دَثَّرها الليل ، وتنطلق إذا ناداها الصباح . .

والأشواق تَهُبُّ على أرواحهم هُبوب الرياح المُرْسَلَة ؛ فترطب من وَقدة الهجير . .

لقد مضى زمن طويل منذ غادروا مكة إلى الشام

تُرى ماذا جدَّ هناك من أمور . . ؟ ؟

هاهى ذى الأرض تُطوى . .

الشام تَذهب بعيداً . . بعيداً . .

ومكة تُقْبل حَثيثاً . . حثيثاً . .

وأخيراً . . تُطِلُّ مَشارف الوطن ، وعبير الأهْل . .

وهناك ، عند تلك المشارف كانت كوكبه من الناس تنتظر . . .

لقد بَصُرُوا بالقافلة من فوق ذُرى الجبل ، فتنادَوْا وتجمعوا لاستقبالها

وكلما اقتربت القافلة من المنتظرين أحسَّت منهم لَغَطاً كثيراً واضطراباً .

تُرى ، ماذا حدث . . ؟ !

والْتَقَى القادمون والمستقبلون فى عِناق ومَودَّة تعالَت خلالَه الأصوات

بالجديد الغريب من الأنباء .

– ألا تعلمون . . ؟ إن قريشاً منذ فارقتموها لا تنام الليل . . ! !

– ويْح قريش . . ولماذا . . ؟ ؟

– إن محمداً وضع الجمْر على أنفها . . ! !

الجمر . . ؟ كيف . . ؟ ماذا جرى . . ؟ !

إنه يقول : إن الله أرسله لنعبده وحده ونذَرَ آلهتنا . . ! !

وهَمس واحد ممن تَستهويهم الفُكاهة قائلا :

– دَعْهُ يُحطمها ، فطالما زاحمتنا فى أكل الثَّريد ، وشرب اللبن . . ! !

واختلطت الأصوات فى ضوضاء مثيرة . .

واقترب من أبى بكر بعضُ ذوى الأناة ، وأخذ يقصّ عليه النبأ فى هدوء ، وأبو بكر يُغالب دموعه وحُبوره . . ! !

ولَدَى مَدخل مكة قابلتهم جماعة صغيرة يتقدمها أبو جهل – عمرو ابن هشام – .

وتعانقوا جميعاً . .

وبدأ أبو جهل الحديث :

– أوَحَدَّثُوك عن صاحبك يا عتيق . .

« وكان أبو بكر قبل إسلامه يُسمَّى عَتيقاً » .

أجابه أبو بكر .

– تعنى محمداً الأمين . .

وقال أبو جهل :

نعم ، أعنى يتيم بَنِى عبد المُطَّلب . . ! !

ودار حوار سريع بين الاثنين :

– أسمعت أنت ما يقول يا عمرو بن هشام . . ؟ ؟

– نعم ، سمعته ، وسمعه الناس جميعاً . .

– وماذا قال . . ؟

يقول إن فى السماء إلاهاً ، أرسله إلينا لنعبده ونَذَر ما كان يعبد آباؤنا . . ! !

– أوَقال إن الله أوحَى إليه . . ؟ ؟

– أجَل . .

ألم يقل كيف كلَّمه ربه . . ؟ ؟

– قال : إن جبريل أتاه فى غار حراء . .

– وتألّق وجه أبى بكر كأن الشمس قد اختصَّتْه آنئذ بكل ضِيائها وسَناها ، وقال فى هدوء مُجَلْجِل :

– إن كان قال ، فقد صَدَق . . ! ! !

ودارت الأرض بأبى جهل ، وتَلعثَمتْ خُطواته ، وكاد جسمه يتهاوى فوق ساقيه المهزولَتين . .

وتناقل الناس كلمة أبى بكر من واحد ، إلى آخر حتى صار لهم بها دِوِىٌّ كَدوِىِّ النحل .

وقصد أبو بكر داره ليرى أهله ، وينفُض عنه وَعْثَاءَ السفر ، وبعدها يقضى الله أمراً كان مفعولا . .

* * *

والآن ، لِنترك « أبا بكر » قليلا فى داره وبين أهله ، حيث نعاود السير فى موكبه بعد قليل لنلتقى به بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . .
ولْنقض بعض الوقت مع كلمته الفذة الجامعة :–

« إن كان قال فقد صدق » . . ! ! !

أجل . . فهذه العبارة الأمينة المضيئة ، هى التى ستتشكَّل وَفْقَها كل حياته المقبلة ، وستجعل من صاحبها أستاذاً للبشرية فى فن الإيمان . . انظروا . .

إن موضوع الرسالة لم يكن جديداً على أبى بكر ، فهو بكل ما معه من ذكاء ، وفطرة ، ومنطق ، قد قلَّب كل وجوه النظر السديد فى هذه القضية ، وانتهى إلى أن الله لن يترك عباده حَيارى . .

وهو بكل ما معه من ذكاء وفطرة ومنطق ، كان خبيراً بالرجال . .

ولقد عاش مع « محمد » سنواتٍ طِوالاً ، ورأى فيه النموذج الحى للإنسان الكامل . .

وهكذا ، لم يكد يتلقى سمعُه النبأ العظيم ، حتى كان إيمانه الذكى مُهيَّأً ليأخذ دوْرَه من فَوره . .

ولم تكن المشكلة بالنسبة إليه تتمثل فى احتمال الصدق والكذب ، بل كانت تتمثل فى هذا السؤال :

– هل صحيح أن محمداً قال هذا الذى يرويه الناس عنه . . ؟ ؟

– إن كان قال . . فقد صدق . . ! !

من شاء فليبحث ، ولْيفحص ، ولْيتَشكَّك ، ولْينتظر . .

أما أبو بكر فلا . .

وحسب محمد أن تنفرج شفتاه عن كلمة . .

حَسْبُه أن يُحرِّك لسانه بِقوْل . . فإذا الصدق الذى ليس كمثله صدق . وإذا اليقين الذى لا يعلوه يقين . . ! !

وهذه الثقة بكل عُرامِها وتَقواها لم تُعطَ كما قلنا اعتباطاً . . إنما نُسجت

عُراها الوُثْقى من كل نُبوءة صادقة سمعها . . ومن كل منطق قويم اهتدى به ، ثم من خبرته التى لا تكذب ، بصدق محمد . . وعظمة محمد . . والحياة الطاهرة التى رأى محمداً يحياها . .

مُحمَّد . . .

ما أطهر الاسم ، وما أعظم صاحبه . . ! !

أربعون عاماً عاشها بين الناس قبل أن يجئ هذا اليوم الذى اختير فيه ليبلغ كلمة الله .

أربعون عاماً كاملة .

لم يخن خلالها أمانة . .

ولم يُزيف كلمة . .

لم يكذب قط ، ولو مازحاً . . ! !

لم تأخذه عن الطهر نزوة ، ولا عن العظمة دَنِيَّة . ! !

لم يُرَ قطّ إلا عظيماً ، وكُفْؤاً لكل عظيم . . ! !

مُنْذ كان طفلا يدعوه أترابه إلى مشاركتهم اللعب ، ومطارحتهم اللهو البرىء، فَيلوِى عِطفه عنهم ويقول لهم :

« أنا لم أُخلَق لهذا » . . ! ! !

حتى صار شابًّا ، فملأ شبابُه فِجاجَ مَكة عَبيراً وطُهراً ، وصار اسمه تسبيحة عَذْبَة على كل لسان . . ! !

وما كانت قريش هازلة معه ، ولا مُجاملة له ، ولا مُتفضلةً عليه حين خَلع عليه إجماعُها لقب « الأمين » . . ! !

بل كانت بهذا ترفع من قدر نفسها ، وتُباهى مَن حولهَا من قبائل العرب بهذا الذى ارتفع فى سِنِّه المبكرة إلى أعلى مستويات الأمانة . .

لا أمانة المال وحده ، ولا أمانة الودائع وحدها . . بل الأمانة على كل ما فى الحياة من قِيَمٍ ، ومُثُل ، وأشياء . . .

* * *

آلآن يَكْذبُ محمد . . ؟ ؟ ! !

آلآن تتحول فجأة حياة قامت على الصدق المطلق إلى هذه الأكذوبة الضخمة . . ادِّعاء الرسالة والكذب على الله . . ؟ ؟

محمد التوَّاب ، الأوَّاب . . الخاشع . . الضارع . . المُتَبَتِّل الأمين ، الطاهر — يكذب على الله . . ؟ !

أبداً . . أبداً . . أبداً . .

ومنذ متى ، كان من الحُنفاء العابدين فى قومه مَن يكذب على الله . . ؟

وهل كان فى ادِّعاء الرسالة مَغنم يُزيِّن للناس إتْيانَه . . ؟ ؟ ! أوَ لم يَر « محمد » بعينه ، كيف صرَخت قريش فى وجه « زيد بن عمرو ابن نُفيْل » برغم شيخوخته المائلة للغروب ، برغم أنه لم يأتها بدين جديد ، ولم يضع المعْوَل فوق آلهتها وأصنامها . . ؟

فكيف إذا جاءها رسول مثل « محمد » ، يقول للناس :

— اتركوا الأصنام فإنها ضلال ، واعبدوا الله الحى القَيُّوم . . ؟ !

أهُناك مُخاطرة تُنذر بالهول كهذه المُخاطرة . . ؟ !

وهل يختارها عاقل لِيتسلَّى بها ويتبذّخ . . ؟ !

أم أنها رسالة فرضَتْ نفسها فَرْضاً على صاحبها ، وإيمانٌ حق ألْقَى عِبئَه الذى لا يُقاوم على مُصطفاه . . ؟ !

إن « محمداً » أنضرُ مثال لكل ما يُنعم به الله من عافية فى العقل ،

وفى الخلُق ، وفى الضمير . .

وما طَوَّفَتْ به ظِنَّة ذات يوم . .

وإن الحنفاء الحكماء ، لَيبشرون من عهد بعيد بالنبى القادم .

وإن الناس حيثما يَمّمَ أبو بكر وجهه ، لَتأخذُهم فاقَةٌ شديدة إلى هادٍ ومُعلم . . إلى رسول من عند الله يُبلغهم كلمته ، ويَرفع وسط صفوفهم رايته . .

أفَئِنْ جاء الرسول يُكفَر به . . ؟

ومحمد بالذات . . ؟ ؟

لا . . .

« إن كان قال ، فقد صَدق » . . ! ! !

هكذا كان منطق الإيمان فى وَعى الرجل الرشيد « أبى بكر » . .

إنه لَيفرُكُ كفّيه فى غبطة ، ويردد لآخر مرة قول أمية بن أبى الصَّلْت :

ألا نبيٌّ لَنا مِنّا فيخبرنا . . .

أجلْ ، لآخر مرة . .

فمنذ اللحظة التى سيلَقَى فيها محمداً ، لن يقول متمنياً :

« ألاَ نَبيٌّ لنا » . . فقد جاء النبى ، وجاءت البُشرَى . .

وسيكون شعاره ، ونشيده ، وهُتافه دَوْماً :

« إن كان قال ، فقد صدق » . . ! !

سيقولها كلما جاء محمد بآية . .

سيقولها عند كل فتنة مُرْجِفَة . .

سيقولها عند كل هزيمة حالِكَة . .

سيقولها حتى يُثيبَه الله عليها ، فينعته بـ « ثانِىَ اثنين » ، و« الصِّدِّيق » .

أما الآن ، فلنُعد إليه ، ولْنصحَب خَطْوَه المبارك ، إذْ يأخذ طريقه إلى رسول الله لِنشهد أول لقاء بين « الرسول » و « الصِّدِّيق » . . ! ! !

غادر « أبو بكر » داره إلى دار الرسول تسبقه أشواقه . .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام مقيماً فى داره مع زوجه « خديجة » رضى الله عنها .

خديجة . . التى كانت أول العالَمين إسلاماً معه وإيماناً به . . .

ولطالما سمعت هى الأخرى من قريبها « ورقة بن نوفل » تَراتيل الحنين إلى النبى المُقبل . .

ولقد عرفت « محمداً » زميلا لها فى تجارتها ، ثم عرفته بَعْلاً وزوجاً ، فما رأت سلوكاً أطهر ، ولا قلباً أكبر ، ولا عقلا أرجح ، ولا صدقاً أعظم مما رأت من محمد . .

من أجل هذا ، لم يكد الرسول يحدثها عن النعمة التى أفاءها الله عليه بالوحى حتى قالت من كل يقينها : صدقت . . ! !

ولقد اختارها الله على علم لتكون شريكة رسوله فى الحياة حين ينزل عليه الوحى بجلاله وأثقاله ، وهيبته ورهبته . .

وكان هنالك مع الرسول وزوجته فتى ممشوق ، هو « على بن أبى طالب » رضى الله عنه . .

كان الرسول قد ضَمَّه إليه من عهد بعيد حين نزلت بعمه ضائقة ، وبقى معه ، فلما جاء الوحى سارع الفتى إلى الإيمان .

قَرع أبو بكر الباب ، ونادى :

وتألَّق بِشْرُ الحياة جميعه على مُحيَّا الرسول ، وقال مناديًا خديجة :

إنه « عتيق » يا خديجة . .

وسارع الرسول إلى لقاء صاحبه .

وجرى الحديث بينهما فى مثل سرعة الضوء وصَفائه . .

قال أبو بكر :

– أصحيح ما أنبأنى به القوم يا أخا العرب . . ؟

أجاب الرسول سائلا :

– وماذا أنبأوك . .

– قالوا إن الله أرسلك إلينا لنعبده ، ولا نشرك به شيئاً . .

– وماذا كان جوابك لهم يا عتيق . . ؟

– قلت لهم : إن كان قال ، فقد صدق . . ! !

وفاضت عينا رسول من الدمع غِبطة وشكراً . .

وعانق صاحبه وقبّل جبينه . ومضى يحدثه كيف جاءه الوحى فى غار حراء قائلا له :

« اقْرأْ بِاسْمِ ربِّكَ الذى خلَق ، خلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ . اقْرأْ وربُّك الأكْرَمُ ، الذى عَلَّمَ بِالقلَمِ ، عَلَّمَ الإنْسانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » . .

وخفَض أبو بكر رأسه فى خشوع وتقوى ، تحيَّةً لراية الله التى رآها ترتفع أمامه إلى أعلى السَّارية ، متمثلة فى هذه الآيات المنزلة . . ! !

ثم رفع رأسه ، وشدَّ بكلتا يديه على يمين رسول الله وقال : أشهد أنك صادق أمين . .

أشهد أن لا إله إلا الله . . وأشهد أنك رسول الله . . ! ! !

* * *

وآنئذ كان الغيب يُجرِى أعظم عملية تفجير تاريخى . .

كان كل ما للإسلام من مستقبل ، وحضارة ، واتساع . يُغادر تلك اللحظة ، ويأخذ كل شيء مكانه على أرض الغد الطويل . .

أجل ، آنئذ ، وفى تلك اللحظة التى شهدت يَداً تُصافِح ، وقلباً يُبايع ، كانت نفس هذه اللحظة ، تتفجَّر وتُخرج خَبْئَها المهُول . . ! !

كانت تَلِدُ زماناً بأسْره . . بأجياله . . بمعجزاته وانتصاراته . .

ولم يسمع أحد يومئذ دَوِىَّ هذا التفجُّر . . حتى الرسول وصاحبه ؛ لأن صوت اليقين فى قَلْبيهما كان أعلى من كل صوت عَداه . . ! !

* * *

هكذا أسلم أبو بكر فى هدوء ، ويقين ، وقوة . .

وسيظل حاملا رايته فى هدوء ، ويقين ، وقوة . .

أسلَم الرجل الذى اصطفاه الله ليكون لرسوله الصدِّيق ، وثَانِىَ اثنين ، وغداً يكون الخليفة . .

أسلم الرجل الذى وإن لم يكن نبيًّا ، فإنه سَيُكَمِّل دَوْرَ النبى . . .

وفى زيارته التالية لرسول الله لم يكن وحده . . بل كان معه وفى صحبته خمسةٌ من أشراف قريش ، أقنعهم أبو بكر بالإسلام فجاءوا يبايعون الرسول . . أولئك هم :

عثمان بن عفان ، والزُّبَيْر بن العوَّام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقّاص ، وطلحة بن عبيد الله . .

أجَل – هؤلاء الخمسة الأعلام ، مرة واحدة .

وكانت هذه أولى بركات أبى بكر . .

فعمَّا قليل تنمو صُفوف المقبلين على الإسلام .

وسيُقبل الناس بعضُهم على بعض قائلين :

– « محمد » و« أبو بكر » . . ؟ ! !

والله لا يجتمع مثلهما على ضَلالَةٍ أبداً . .

آمن أبو بكر إذن . . فمن أى طراز كان إيمانه . . ؟ ؟

إن عظمة هذا الرجل مَاثِلة فى إيمانه . . مَاثِلَةٌ فى أنه مارَس فوق أرض البشَر وفى دنيا الناس نوعاً من الإيمان جِدَّ عجيب . . ! !

إيمان مُحيِّر ! !

سَهلٌ إلى أصعب مَدًى . .

كالذَّرَّة لا تكاد تُرى . .

وكالذَّرَّة ، تنطوى على أعظم طاقة مُذهلة . . ! !

إن إيمان أبى بكر ، كالنسمات الوديعة الرَّقْراقة ، نَنْشَقُها دون أن نُحِسَّها ودون أن تُثير فينا الانتباه ، ولكن حين تعرِض لأحد أزْمة اختناق ندرك أن هذا الشىء الذى كان عادياً ، هو سِرُّ الحياة ! وكل الحياة . . ! !

كذلك ، سيعيش أبو بكر بإيمانه بين الناس هادئاً وديعاً .

ولكن حين تُلِمُّ بالإسلام أزمة ، يتبَّين الناس فجأة ، وعلى صورة نادرة باهرة ، أية طاقة جبَّارة شامخة ، تستقر تحت جوانح هذا الوديع الرَّقْراق . . ! ! !

ساعتئذ يدرك المسلمون أن الأنفاس الهادئة التى كانت تتردَّد بين صفوفهم ، هى رُوح الحياة ، وأن الإيمان الْحَيَّ الذى يحمله هذا الرجل فى هدوء ، إنما هو قَدَرٌ هائل لا تصمُد أمامه عقَبة ، ولا مستحيل . .

لقد تحدث الرسول فيما بعد كثيراً عن أبى بكر .

وكان مما قاله عنه :

« مالأحدٍ عندنا يد ، إلا وقد كافأناه بها ، ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة . . .

« وما نفعني مالُ أحد قط ، مثلما نفعني مالُ أبي بكر . . .

« وما عرضتُ الإسلام على أحد إلا كانت له كَبْوَةٌ عدَا أبي بكر ، فإنه لم يتَلَعْثَم » . . ! ! !

هذا أصدق وصف وأذكاه لإيمان أبي بكر . .

إنه الإيمان الذي لم يتلعثم أبداً .

* لم يتلعثم عند السَّانحة الأولى بل كان كأَنه على موعد مع الدِّين الجديد ، فسارع إليه مُسارَعة الظامئ المُشْتاق . . ! !

* ولم يتلعثَم عندما انتقض أهل الردة ضد الإسلام ، وهَمُّوا به إثْرَ وفاة الرسول . بل ازداد هذا الإيمان فى قَلْبِ المِحنة ثباتاً ورُسوخاً ، وتألُّقاً وتفوُّقاً . . وعرف واجبه من فَوره ، ثم باشَر هذا الواجب على أكمل وجه وأَتَمِّه . .

* ولم يتلعثم فيما بين ذَيْنِكَ من مَواقف امْتُحِنَ فيها إيمان المؤمنين امتحاناً رهيباً ، فلم يكن ثَمَّةَ أرسخ ، ولا أقوى من إيمان أبي بكر . .

ولْنشاهد الآن بعضاً من مواقف ذلك الإيمان الفريد بالله ، وبرسوله ، وبدينه .

* * *

فى ضُحى يوم من الأيام اجتاح أهل مكة جميعاً حديث أثار كل ما فى أنفسهم من دهشة وعجب .

فقد كان أبو جهل ذاهباً لبعض شأنه حين مرّ بالكعبة فأبصر رسولَ الله

جالساً وحده فى المسجد الحرام ، صامتاً مفكراً . .

وأراد أَبو جهل أن يُؤذِىَ الرسول ببعض سُخرِ ياته . فاقترب منه وسأله .

– أوَلَم يأتك الليلة شىء جديد . . ؟ !

فرفع الرسول رأسه نحوه وأجاب فى جدّ :

– نعم ، أُسْرِىَ بى الليلة إلى بيت المقدس بالشام .

فقال أبو جهل مستنكراً :

وأصبحتَ بين أظْهُرنا . . ؟ ؟

قال عليه الصلاة والسلام : نعم . .

وهنا صاح أبو جهل فى جنون :

– يا بنى كَعب بن لُؤَىّ ، هَلُّموا . . ! !

وأقبلت قريش ، ينادى بعضها بعضاً . .

ولم يكن الرسول قد حدَّث أحداً من أصحابه المؤمنين بنبأ الإسراء بعد . .

تجمَّع الناس عند الكعبة ، ومضى أبو جهل يحدثهم فى حُبور بما سمع ، فقد ظنَّها الفرصة المواتِية التى عندها سينفضُّ عن الرسول كل مَن آمن به .

وتقدم واحد من المسلمين ، وسأل الرسول :

– أحقًّا أُسْرِىَ بك الليلة يا رسول الله . ؟

فأجاب الرسول :

– نعم ، وصليت بإخوانى الأنبياء هناك . .

وسرَى فى الجمع المحتشد خليط متنافر من المشاعر المهتاجة .

ورحَّب المشركون بما سمعوا ، ظانِّين أن فى هذا النبأ نهايَة الرسول :

واحْتَوَشَتِ الشكوك فريقاً من المسلمين .

وسعَى بعض رجالات قريش إلى بيت أبى بكر فَرِحين شامتين ،

لا يُخالجهم ريب فى أنهم سيعودون ومعهم رِدَّتُه عن هذا الدين . . ! !

فأبو بكر يعرف أكثر من غيره ، ما يحتاجه قطع المسافة بين مكة والشام من سفر مُضْنٍ وزمان طويل . .

فكيف بالذى راح ، ورجع ، وصلَّى هناك . . كل ذلك فى بضع ساعات ! !

بَلَغوا دار أبى بكر ، وصاحوا به :

– يا عتيق . . كُلُّ أمر صاحبك قبل اليوم كان أَمَماً – يعنى هيِّناً ومُحْتَملا – أما الآن فاخرج لِتَسمع . .

وبَزَغَ عليهم أبو بكر دَهِشاً تُجَمِّله سكينته ووقاره وسألهم : ماذا وراءكم . . ؟

قالوا : صاحبك :

وانتفض أبو بكر وقال :

– وَيْحَكُم . . هل أصابه سوء . . . ؟ !

وتراجع القوم قليلا ، وازْدَرَدَ كلٌّ منهم رِيقَه فى مشقَّة وقال قائلهم :

– إنه هناك عند الكعبة ، يحدث الناس أن ربه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . .

وتقدم آخر يكمل الحديث ساخراً ، وقال :

– ذهب ليلا ، وعاد ليلا ، وأصبح بين أظهُرنا . .

فأجابهم أبو بكر وقد تهلَّل مُحيّاه :

– « أيُّ بأس . ؟ إنى لأُصدقُه فيما هو أبعد من ذلك . .
أُصَدِّقُه فى خبر السماء يأتيه فى غَدوة أو رَوْحَة . . »

ثم أطلق عبارته الصامدة .

« إن كان قال ؛ فقد صدق » . . ! ! !

أهناك كلمات تستطيع النهوض إلى مستوى الإشادة بهذا الموقف أو التعليق عليه دون أن يَغلبها الحياء والعجز على أمرها . . ؟ ؟

عبارة واحدة تستطيع المناسبة أن تُسعفنا بها ، هى :

— يا واهِبَ هذا اليقين سبحانك . . ! ! !

هذا رجل لم يُؤمن إيمان الصُّدفة ، بل آمن إيمان الفِطنة . .

لم يؤمن بعواطفه ، بل آمن بذكائه . .

لم يدفعه إلى الإيمان منطق القلب وحده . . بل منطق العقل قبله . .

انظروا إلى قوله :

« إنى لَأصدقُه فيما هو أبعد من ذلك . . أصدقه فى خبر السماء يأتيه فى غدوة أورَوْحة » .

أجل . . . أفلا يُصَدِّقه إذا قطع بضعة أميال فى ليلة واحدة . ؟ !

إن الله الذى آمن به أبوبكر لا مُنتَهى لقدرته . .

والرسول الذى آمن به أبوبكر لا شك فى صدقه . .

وما أكثر الظواهر التى نراها ونُحِسُّها ويعجز العقل عن تفسيرها .

فلتكن هذه واحدة منها .

الذى يعنيه أن يكون الرسول قد أخبَرَ وقال . وعندئذ يكون كل شىء ممكناً وصادقاً . . ! !

إذا كان وَافِدُ السماء وسَفيرها ، يغدو ويروح بين السماء والأرض فى لحظة مُلْقياً القرآن على قلب النبى ليكون من المُنذِرين . .

وإذا كان أبوبكر قد آمن بهذا ، ففيم يِشكُّ بعد هذا . . ؟

فى سفر الرسول إلى بيت المقدس وأَوْبَتِه منه فى ليلة واحدة ؟

وأىُّ بأس . . ؟

إن الزمان والمكان . .

وإن البُعد والقرب . .

كل أولئك أمور تتعلق بقدرة الناس .

أما الله الذى يقول للشيء : كن فيكون ، فما الزمان ، والمكان أمام قدرته . . ؟ ؟

ما الأَبْعاد ، والآماد ، أمام مشيئته . . ؟ ؟

ليست المشكلة إذن : كيف ذهب الرسول إلى بيت المقدس وعاد منه فى ليلة .

ولكن المسألة هى : هل قال محمد ذلك . . ؟

« إن كان قال ، فقد صدق » . . ! ! !

وهَرْوَل أبو بكر إلى الكعبة حيث رسول الله .

وعند الكعبة رأى الجمع الشامِتَ المُرْتاب ، مُتحلِّقين لاَغِطِين .

ورأى نور الله هناك فى جلسته الخاشعة الضارعة مستقبلا الكعبة ، لا يُحِسُّ من اللَّغَط الدائر حوله شيئاً ، ولا يسمع للحمقى رِكْزا .

وانطرح أبو بكر عليه يعانقه ويقول :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله . . . والله إنك لصادق ، والله إنك لصادق . . ! !

* * *

ومشهد آخر من مشاهد هذا الإيمان الفريد يتجلّى خِلاله تهلُّل هذا الإيمان للتضحية والبذل .

فذات يوم وأبو بكر فى داره سَعِد بزيارة رسول الله له ، وفوجىء بالرسول يقول له :

– يا أبا بكر ، إن الله أذِن لى بالهجرة . .

كان أصحاب النبي عليه السلام ، قد سبقوه إلى المدينة مهاجرين ، وبقى الرسول بمكة ينتظر أن يأذن الله له ، وبقى أبوبكر بجانبه . .

والآن وهو يسمع النبأ الجديد يكاد قلبه يطير من الفَرح ويقول : الصُّحْبَةَ يا رسول الله . . .

فيجيبه الرسول : الصحبة يا أبا بكر . .

إن الهجرة فى حد ذاتها رحلةٌ عافية ؛ فهى اطِّراحٌ لأذى قريش ولمؤامراتها التى لا تُؤذِنُ بانتهاء . .

ولقد هاجر المسلمون إلى المدينة بإذن من الرسول وإنهم بالهجرة لَسُعَداء ، فقد أراحتْهم من سَفَهِ قومهم ، وإن يَكُ لِفراق الأهل والوطن مرارة وغُصَّة . .

ولكن الهجرة بالنسبة للرسول خاصَّة ، مخاطرة ، ما مثلها مخاطرة . .

فإن قريشاً إذا كانت قد تركت المسلمين يغادرون مكة فى سلام فما هى أبداً بتاركة رسول الله .

ولقد تحدث زعماؤها فى هذا كثيراً ، وانتهوا إلى أنهم إذا تركوا الرسول يخرج إلى المدينة ، ويرفع فى سمائها رايته ، فلسوف يجمع العرب حوله ثم يغزوبهم قريشاً . .

ومن ثَمَّ قرروا أن يظفروا برأس الرسول . .

ولعلَّهم إنما تركوا المسلمين ومعهم عمر بن الخطاب وعمر « بصفة خاصة » نقول : لعلهم تركوهم يهاجرون ليبقى الرسول بينهم بلا أنصار حتى يتأتَّى لهم الخلاص من أمره بسهولة . . ! !

إذن فهجرة الرسول ليست نزهة ، ولا مجرد هجرة . إنما هى مخاطرة مَهُولة . ومطاردة فادحة . .

وأبو بكر يعرف هذا جيداً ، ويعلم أن قريشاً ستملأ السَّهْل والجبل بِفُرسانها ومُقتفِى الخُطى والآثار فيها حتى تظفر بالنبى المهاجر.

فما باله يتهلَّل لهذه الصحبة ، ويحرص عليها ، ويطير قلبه فرحاً بها . . ؟

إنه الإيمان . . ! !

إيمانه — أولا — بأن الله لم يُلْق بكلمته إلى الناس وفى مشيئته أن يتركها لقريش تَذْرُوها مع الريح من أوّل صيحة . .

وإيمانه — ثانياً — بأن الإيمان مسئولية وتضحية ، ولقد أصبح مسئولا عن هذا الدين مُنذ تَبِعَه ، وعن هذا الرسول منذ بايَعه . .

ومهما تكن العواقب إذن ، فلن يكون ثَمَّةَ سوى طريق واحد لا يعرف أبو بكر سواه . . ذلكم هو طريق الواجب الذى يحدده إيمانه ، وطريق التضحية التى يتطلبها هذا الإيمان .

لقد آمن بالله ، وبرسوله ، وبدينه .

ومهمته بعد ، تتلخص فى أن يجعل من حياته كلها سياجاً يحمى بها الدعوة والداعى . . الدين والرسول . .

وحين يُوَفَّق فى مهمته هذه ، فتلك عنده هى الحظوظ الوافية التى يرجوها ، وينتشى حُبوراً بها ، ويُحِسُّ كلما تزايدت أهوالها وأخطارها ، أنه أعظم أهل الأرض حظًّا ، وأوفاهم سعادة وغُنْماً . . ؟ ! !

ومن هنا كانت غبطته الفائقة حين رأى نفسه زميلا للرسول فى هجرته . .

ولقد أجزل الله له المَثُوبة والمكافأة .

وكانت المثوبة مزيَداً من الإيمان ، ملأ الله به قلبه فى ضوء تجربة من أروع التجارب .

فحين أَوَى مع الرسول إلى الغار ليختفيا فيه من قُوَى المطارَدَة التى كانت تلهث وراءهما طمعاً فى نَيْلِ الجائزة المغرية التى أَهْدَتْها قريش لمن يأتيها بالرسول عليه السلام .

حين أَوَيَا إلى الغار معاً – الرسول ، والصدِّيق ، واقترب المُطارِدُون من الغار ، وراحوا يُطوِّفون حوله – وفُزِّع أبو بكر تحت هوْل السؤال الذى أخذ يُلِحُّ عليه :

– ماذا لو نظر أحدهم إلى جوف الغار . . ؟

– ماذا لو ظفر المجرمون برسول الله . . ؟

حينئذ كان الله يدَّخر للصدِّيق الدرس الأخير الذى سيكمِّل إيمانه ويبلغ به أعلى مُستويات الإيمان المتاحة لِبَشر . .

فلقد أَلْقى على الرسول سؤاله :

– يا رسول الله ، لو نظر أحدهم إلينا لرآنا . .

قال هذا وعيناه تتجهان إلى رسول الله فى حياء وقَلَق .

ولم يكَدْ بصره يلتقى بمُحيَّا الرسول حتى رأى عجباً . . رأى وجهاً مُتَهللا كأنما أُلقيت عليه آنئذ كل ما فى الحياة من سَكِينة ، وطُمأنينة ، وأمَل . .

ورأى راحةَ الرسول تلامِسُ صدره ، فكأنما تَسكُب فيه الطمأنينةَ سَكْباً . . ! !

وقال له الرسول :

– يا أبا بكر – لا تحزن ، إن الله معنا . .

– ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما . . ؟ ! !

وسكَن أبو بكر ، ورأى المطارِدين ، يُطوِّفون بالغار فى خَبال ، ثم يرتدُّون عنده حيارَى وعُمياناً ، لم ينالُوا شيْئاً . . ! !

تمَّ له يومئذ إيمانُه ، واستوى على عَرش اليقين يقينُه .

ولكأنما اختارته الأقدار لصحبة الرسول فى الهجرة لِتُرِيَه هذا المشهد .

بل لكأنما أراد القدَر هذا المشهد وهيَّأه ، ليبلغ أبو بكر من عِظَته البالغة كل ما تبقَّى له من حُظوظ إيمانه . جزاءً وفاقاً ، وكأساً دِهاقاً ، لن يظمأ أبو بكر بعدها أبداً إلى إيمان ويقين . . لقد بلَغ إيمانه الذروة فى لَحظَة الغار . . !

* * *

ولْنتابع سيرنا وراء هذا الإيمان الفذّ لِنرى جلاله المَهيب فى مَشهدٍ تِلْوَ مَشْهد . .

فى السنة الخامسة من الهجرة ، وفى شهر ذى القِعْدة ، غادر الرسول المدينة ، ومعه عدد كبير من المسلمين . قاصدين مكة ليعْتمروا . . وساق الهَدْىَ أمامه لتعلم قريش أن الرسول جاء زائراً للبيت الحرام ، ولم يأت مُقاتلا . .

بَيْدَ أنَّ نبأ هذه الزيارة ، كان قد سَبَق إلى قريش بطريقة مَّا فحشدت جُمُوعها ، وصممت على منع الرسول وصحبه من دخول مكة وزيارة الكعبة .

ونزل الرسول وأصحابه عند مهبَط الحُدَيْبِية .

وأوفد إلى قريش « عثمان بن عفان » ليشرح لها سَببَ مجيئه . .

وأوفدت قريش « سُهَيل بن عمرو » ليُفاوض الرسول فى الأمر .

واتتهت المفاوَضة إلى عقد ميثاق ، يعود المسلمون بمقتضاه إلى المدينة مُرجئين زيارة البيت إلى العام القادم ، كما يتضمَّن الميثاق التزام المسلمين بأن يردُّوا إلى قريش من يأتيهم مُسْلِماً ، ولا تردُّ قريش إلى المسلمين من يعود إليها مُرتدًّا . .

ولم يَكد الكاتب ينتهى من كتابة الميثاق ، ولم يَمهَرهُ الرسول بخاتم النبوة بعد ، حتى فوجئ المسلمون بفتى يأتيهم صارخاً مستغيثاً ، يرسُف فى قيوده ، ويجرجر أغلاله المُثبتَةَ فى حجارة غليظة كى تُعوقَه عن المسير . . !

كان هذا الفتى « أبا جندل » وهو ابن « سهيل بن عمرو » مندوب قريش . . هذا الذى يتفاوض مع رسول الله .

وفاض قلب الرسول من الأسَى لمنظر أبى جندل الذى ارتفع جُؤَارُه مستغيثاً برسول الله .

وقال الرسول لسهيل :

– اترك لنا « جندلاً » فإنَّا لم نُنْجز العهد بعد . .

وما كان لسهيل أن يترك ولده يذهب إلى الإسلام ، وهو واحد من زعماء قريش ، فأصرَّ على تسليمه ، أو ينقض العهد كله . . وتكون الحرب .

وصاح أبو جندل :

– يامعشر المسلمين ، أتتركوننى أُرَدَّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً . . ؟

– ألاَ تُبصرون ما على جسدى من عذابٍ فى الله . . ؟

وناداه الرسول بكلمات آسية :

– اصبر . . وسيجعل الله لك مَخرجاً . .

كان هذا المشهد أدهى وأكبر من أن تحتمله أعصاب المسلمين . .

فكيف يرجعون دون أن يزوروا البيت الحرام . . ؟

وكيف يُسْلِمون للعذاب مُسلماً جاء يستصرخ بهم ، ويستغيث . . ؟

ويُصور لنا احتدامَ القلق الرهيب فى أنفسهم ، موقفُ واحد من أعظمهم إيماناً ، وتفانياً ، وطاعة . . هو « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه . .

لقد ذهب إلى الرسول يسأله ، ويُناقشه . .

– يا نبي الله ، ألستَ نبيَّ الله حقًّا . . ؟

وأجابه الرسول :

– بلَى ، يا عمر . .

قال : فَلِمَ نُعْطَ الدَّنِيَّة فى ديننا . . ؟

أجابه الرسول :

– يا عمر ، إنى رسول الله ، ولستُ أعصيه ، وهو ناصرى . .

قال عمر :

– أوَلَم تَعِدْنا – يا رسول الله – بأننا سنأتى البيت ونطوف به . . ؟ ؟

قال الرسول : أوَقُلْتُ هذا العام ، يا عمر . . ؟ ؟

قال عمر : لا . .

قال النبي : فإنَّك آتيه ومُطَّوِّفٌ به .

إن هذا الحوار يكشف عن حِدَّة الأزمة التى عاناها المسلمون يومئذ . . ولكنْ ما شأن أبى بكر بهذا كله . . ؟ ؟

إن « أبا بكر » ، هو أستاذ فَن الإيمان فى ذلك اليوم العصيب ، كما سيظل أستاذه فى كل حين . . ولنمض وراء « عمر » ، فبعد لحظات سنلتقى معه عند « مِنَصَّة الأستاذية » حيث يتربَّع فوقها هذا المعلِّم الكبير . أبو بكر الصديق ! !

ينصرف عمر . . من بين يدى رسول الله ، وهو لا يزال يُعانى مشاعره القَلِقَة . .

ولقد ردَّه الأدب مع الرسول عن الاسترسال فى المُناقشة والإلحاح فى السؤال .

بَيْد أنه يُحسُّ فى نفسه حاجة إلى مزيد من الوضوح .

فمع من يتحدث . . ؟

لا أحد سوى أبي بكر .

ومضى يجتاز صفوف المسلمين وحلقاتهم حتى لمحه هناك ، فى أقصى الجمْع تغمره طمأنينة عجيبة . . !

ألْقى عليه الأسئلة ذاتها التى ألْقاها على رسول الله منذ لحظات .

وتَلَقَّى من أبى بكر الإجابات ذاتها التى سمعها من رسول الله .

وانتهى الحوار بينهما . .

يقول عمر :

– « فأخذ أبو بكر بيدى ، وجذبها فى قوة ، وقال لى :

« أيها الرجل ، إنه رسول الله ، ولن يعصيه ، وإن الله ناصرُه ، فاستمسك بغَرْزِه ، فوالله إنه على الحق . . .

« فأنزل الله السَّكينَة على قلبى وعلمتُ أنه الحق »

هذا هو إيمان أبى بكر الذى لا يتلعثم ، ولا يبحث عن نفسه أبداً . .

الإيمان الذى لا تأخذه سِنَةٌ ، ولا تَتقحَّمه خَلْجةُ شك فى سرٍّ أو عَلَن . . !

وفى ساعات العُسْرة ، وخلال الأزمات العُظمى ، كان إيمان هذا المؤمن يُخرج خَبْأه الباهر ، فيملأ الزمان ، والمكان ، والأنفُسَ رَوْعة . . ! ! !

* * *

والآن لنشهدْه يوم « بَدْر » وقد نزلت قريش بجيشها اللَّجِب عند العُدوَة القُصْوَى من الوادى ، مُسَلَّحة بكبريائها وبأسها .

وخرج المسلمون مع رسول الله وعِدَّتُهم يومئذ ثلثمائة لا يملكون من سلاح المقاومة إلا نَزْراً يسيراً .

ويلتقى الجمعان ، وتتلظّى أرض المعركة فجأة . .

ورسول الله جالسٌ فى عريشهِ ، حيث توسَّل إليه أصحابه ألاَّ يُغادر خيمته مهما تَدُرْ رحَى الحرب ، وأبو بكر معه . .

بصُرَ الرسول بالمعركة المُحتدمة الحافلة ، ورأى أصحابه وهم قليلون ، يكادون يذوبون وسط الخِضَمِّ الوثنى المجنون . !

وكلما رأى شهيداً يسقط ، طار معه قلبه حناناً وأسى . .

وبلغ القتال ذروته الفاصلة ، ولم يعد يُسمع إلا صليل سيوف متوهجة تَعزِف لحن الموت والدم . . . وأحسَّ الرسول أن كل مُقدَّرات الدين قد صارت فى الكِفَّة المرجوحة ، لا الكفَّة الراجحة .

وخرج من خيمته باسطاً إلى السماء ذراعيه ، مِثل شِرَاعَىْ سفينة دهمها موج عنيد عتيد . . ! !

وراح يُناجى ربه فى ابتهالات عالية :

« اللهم إنْ تَهلِكْ هذه العصابة من أهل الإسلام ، فلَن تُعبد فى الأرض . .

« اللهم أنجزْ لى ما وَعدْتنى . . . »

وتوالت ابتهالاته . . وبُحَّت نبَراتُه . . وتهدَّجت دعواته ، وسقط رداؤه من فوق مَنكِبه . .

وهنا . . . اقترب أبو بكر فى هدوء فرفع رداء الرسول وأعاده إلى مكانه فوق المنكبين اللتين كانتا آنئذ تحملان أعظم أعباء الحياة . .

وفى كلمات مُتوسِّلَة ، قال أبو بكر :

— يا رسول الله ، كفاك مُناشدتَك ربك ، فإنه سيُنْجزُ لك ما وَعدك » . .

لم يكن الرسول فى شك من نصر الله . . فقُبيل المعركة قال لأصحابه :

- « إن الله وعدنى النصر . . » .

وقال لهم : « لَكأنى أرى مَصارع القوم . . » ! ! !

ولكن مسئوليته المباشرة عن أصحابه وعن الدين الذى يُواجه أول معركة مع خصومه ، عكست على مشاعره حماسَ المعركة وقَلقَها . .

* * *

ومن شاء أن يرى إيمان أبى بكر فى أحفل ساعاته . .

مَن شاء أن يرى الإيمان العُلْوِىَّ الموصولَ بِقيُّوم السماوات والأرض . .

فلْيرَ هذا الإيمان يوم دُعِىَ الرسول إلى الرفيق الأعلى ، فأجاب ورَحَلَ عن الحياة والأحياء . .

يوم تَلفَّت المسلمون فجأة ، فلم يروا بينهم « الأب » الذى كان يملأ حياتهم حناناً ، و « النور » الذى كان يملأ وجودهم ضياء . .

يومئذ تكشَّف جوهر هذا الإيمان .

إيمانُ رجل إلهى ، أعطى الله مَوْثقَه مع محمد ، فإذا اختفى « محمد » بالموت ، فإن هذا الإيمان لا يَضعُف ، بل يتفوَّق . . ولا يَجزع ، بل يَحتشِد . . . ولا يَنُوء تحت وقع الضَّربة ، بل ينهض أَيِّداً رشيداً ثابتاً ، ليحمل مسئولياته وتبعاته . . ! !

وهكذا وقف « أبو بكر » أو بتعبير أَحْجَى ، وقف « إيمان » أبى بكر يوم وفاة الرسول وقفة ما كان يقدر عليها سواه . . ! !

يومئذ ، وبعد أن صلى بالمسلمين ، عاد الرسول فى حجرته واستأذنه فى أن يغيب عنه بعض الوقت ، وذهب إلى داره بالعالية فى أقصى المدينة .

ومضى وقت ليس بالطويل قضى فيه بعض حاجات أهله .

وإذ هو يتهيأ للعودة إلى رسول الله إذا النَّاعى يَقطع الأرض إليه وَثْباً ، ويُلقى عليه النبأ الذى يهدّ الجبال .

حَمِد واسْترجع ، واختلطت دموعه الهاطلة بكلماته وهو يقول : « إنَّا لله ، وإنا إليه راجعون » . .

وأغذَّ السير رابط الجأش ، قويَّ الجَلَد إلى بيت رسول الله .

لم يكد يقترب من المسجد حتى رأى الفاجعة الكبرى . . لقد فقَدَ المسلمون صوابهم . . ! ! !

حتى ابن الخطاب القوى الراسخ ، وقف بين الناس شاهراً سيفه ، صائحاً :

— « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات ، وإنه والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران . .

« والله لَيرجعن رسولُ الله ، فليقطعن أيدى رجال زعموا أنه مات . .

« ألاَ ، لاَ أسمع أحداً يقول إن رسول الله مات ، إلاّ فَلقْتُ هامته بسيفى هذا » . . ! !

تلك كانت حال عمر ؛ فكيف كانت حال سواه . . ؟ ؟

لقد كان موت الرسول مفاجأة تامة للمسلمين على الرغم من سابق مَرضه .

كأنهم ما تصوَّرُوا أبداً أن يقال لهم ذات يوم : مات الرسول . . !

فلما أنفذ الله أمره ، واختار لجواره رسوله ، وكُتب على الناس أن يسمعوا فى لُجج من الهول والأَسَى كلمة الموت مقترنة بكلمة الرسول ، طار منهم صوابُهم . .

ولقد كان أبو بكر أحقَّ الناس بأكبر قدر من الأسى ، والذهول . .

فهو « صَدِيق » العمر لمحمد منذ طفولة الحياة وشبابها . . وهو « صدِّيقُه » منذ أول أيام الوحي والدين . . وهو قد أحبَّه حبًّا ، وآخاه مُؤاخاة تجعل الصبر على فراقه فوق طاقة البَشر .

لكن أبا بكر كان يبدو وكأنَّه لا تحركه طاقات بشرية ، بل طاقة إلهية حَلَّتْ فيه . . ! !

ولْندَع شاهد عيان يصف لنا ثبات أبى بكر عند الصَّدْمة الأولى :

« أقبل أبو بكر ، يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء ، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مُسَجًّى فى ناحية البيت ، عليه بُرْدُ حِبرَة . فكشف عن وجهه ، ثم قَبَّله وقال :

« بأَبى أنتَ وأمى ، طبْتَ حيًّا وميتاً – إن الموتَة التى كتبها الله عليك قدْ مِتَّها . .

« ثم ردَّ الثوب على وجه الرسول . .

« ثم خرج ، وعمر يكلم الناس فدعاه للسكوت ، فأبى عمر إلا أن يسترسل فى قوله . .

« فلما رآه أبو بكر لا يُنصت . أقبل على الناس يكلمهم . .

« فلما سمعوه أقبلوا عليه منصتين ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس .

« من كان يعبد « محمداً » ، فإن « محمداً » قد مات . .

« ومن كان يعبد الله ، فإن الله حيٌّ لا يموت . .

« ثم تلا هذه الآية :

[وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ . . ؟

– وَمَن ينقلِبْ علَى عَقِبَيْهِ فلَن يضُرَّ اللهَ شيئاً . .

– وسيَجْزى اللهُ الشاكرين] . .

« فوالله لكأَن الناس يسمعون هذه الآية لأول مرة . .

« أما عمر ، فقد وقع على الأرض ، حين علم من كلمات أبى بكر أنه الموت حقًّا » . . ! !

* * *

أفى هذه اللحظات الذاهلة ، والفاجعة المزَلْزِلة يكون مثلُ هذا الثبات . . ؟

« مَن كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات » .

« ومَن كان يعبُد الله ، فإن الله حَى لا يموت » . . ؟ ؟

إن أقصى ما كان يُنتظر أن يُفيئه الجَلَدُ والسَّكينة ، كلمات توصى بالصبر وتمنح العزَاء .

ولكن البديهة المؤمنة التى تشبه عين الصّقْر ، وقعت فى أقلّ من لَمح البصر على كلمة السّر التى ستردُّ الهمم المنسحقة تحت وطأة الفاجعة إلى وَعى قدير يستقبل تبعاته الجِسام ويعبرُ أزْمة الموت بسلام . . ! ! !

ولم تكن كلمة السر سوى هذه الصيحة الحاسمة الفاصلة :

« مَن كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات . . .

« ومن كان يعبد الله ، فإن الله حيٌّ لا يموت » .

الله حى لا يموت . . ؟ ؟

إذن يا خيل الله اركبى . .

ويارايَة الله ارتفعى . .

ويا حَمَلَة هذه الراية ، قوموا . . انهضوا . . وَاصِلُوا رحلة الشمس

المشرقة ، والدين الجديد . . ! !

ولقد فعَلت صَيْحة أبى بكر فى نفوسهم فعل القدَر ، فقاموا إلى الجسد الكريم المُسَجَّى ، وأدَّوْا له تحية الوداع ممزوجة بالعزم الأيِّد الذى سيستقبلون به تبعات الساعة التالية . . ! !

* * *

عندما نستعرض هذه المشاهد التى تَجلَّى خلالها إيمان أبى بكر ، نجد أنفسنا أمام سؤال بالغ الأهمية .

هو :

ماذا ، لو لم يكن هناك أبو بكر . . ؟ ؟

وسيتألق هذا السؤال ، ويفرض نفسه بصورة آكدَ وأوضح عندما نعيش عمَّا قريب مع أبى بكر فى يومين عظيمين - يوم السَّقيفة ، ويوم الرِّدَّة . .

إن الأَمر ليبدُو كمَا لَو كان الله سبحانه حين اصطفى « محمداً » عليه السلام ليكون رسوله إلى الناس ، اجْتَبَىَ معه فى اللحظة نفسها . « أبا بكر » رضى الله عنه لِيكمِّل دورَ الرسول . .

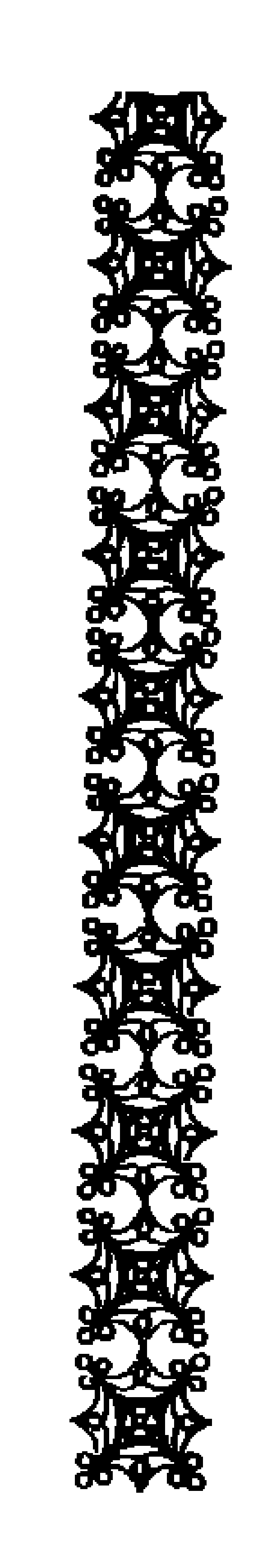
وحين تتطلع حياتنا الإنسانية إلى أساتذة تتلقى عنهم ومن سيرَتِهم فنَّ الإيمان ، فإنها واجدة على رأس تلك القِلَّة النادرة الباهرة ، رجُلَ الإسلام الكبير . . « أبا بكر الصديق » . .

ولقد عشنا لحظَات مع إيمانه ، فلْنَرَ مع الصفحات المقبلة ، كيف حَمل هذا المؤمن مسئوليات ذلك الإيمان ، وكيف وهَب حياته لتبعاته فى تواضُع مُطلَق ، وسُمُو بَعيد . .

الفصل الثالث

ولو خَطِفتني الذّئابُ !!





كان موقف الصِّدِّيق يوم وفاة الرسول بمثابة « البُوصلة » التى حدَّدَت اتجاه التاريخ نحو الرجل الذى سيملأ الفراغ الكبير الذى تركه الرسول برحيله .

فالرجل الذى لم يفقد شيئاً من « ثباته » أمام المفاجأة التى روّعت المسلمين ، جميع المسلمين .. ! !

الرجل الذى احتفظ برباطة جأشه ، وسكينة نَفْسه وَسَداد فكره على هذا النحو الفذّ فى هذا الموقف الذى يَدَعُ الحليم حَيران .. ! !

هذا الرجل هو الجدير بأن يتقدم ويقود .

ولم يكن ذلك فحسب ، مناط التزكية والتقديم ..

فهناك الماضى الحافل بكل بُطولة وكل مَكْرُمَة ..

وهناك إرهاصات بخلافته تُشير إلى دوره المقبل وتُزكّيه .

ففى مرض الرسول عليه السلام ، اختار أبا بكر ليصلى بالناس مكانه ، وقال : « مُرُوا أبا بكر ، فَلْيُصَلِّ بالناس » ..

وحين راجعته السيدة عائشة فى هذا قائلة : « إن أبا بكر رجل رقيق

القلب ، وإنه إذا قام مقامك غلبه البكاء . فَمُر « عمر » أن يُصلى بالناس » ..

حين رجع النبي فى الأمر غضب ، وأعاد أمره مرتين :

« مُرُوا أبا بكر فَلْيُصلِّ بالناس » ..

وامتثل الصدِّيق أمر الرسول ، وهو لا يدرى ، أو لعلَّه كان يدرى أنه فى تلك اللحظات إنما يتسلَّم الراية من رسول الله ليحملها من بعده .

ولقد فوجئ أبو بكر إثر وفاة الرسول مباشرة بموقف لم يكن يخطر بباله .

ذلكم هو موقف السقيفة الذى بدأ مُنذراً بِشرٍّ مستطير ، ثم انتهى نهاية موفورة العافية والسعادة ، إذْ بُويعَ أبو بكر خليفة وإماماً ..

وحين نطالع تاريخ « أبى بكر » لا نجد لديه أدنى رغبة فى أن يحكُم الناس ، أو أن يكون خليفة عليهم .

إن شأنه فى العُزوف عَن مناصب الدنيا ، شأن عمر .

بل إن « عمر » فى زهده الجاه والمنصب ، كان يتأسَّى بأبى بكر ، ويتتبع خُطاه .

وجاء يوم السَّقيفة ليجتاز إيمانه امتحاناً رهيباً .

وكُتب على الرجل الذى كانت هوايته أن يعيش فى الظِّلِّ ما لم يكن ثَمَّة خَطر يدعوه .

الرجل الذى كانت قُرَّةُ عينه فى ألاَّ تقع عليه عين وهو فى مكان صَدَارَةٍ يبعث فى النفس زهْواً وعُجْباً .

الرجل الحَيِيُّ ، الوديع الأوَّاب . كُتِب عليه أن يعلُوَ صدر الأحداث فجأة ، لا طمعاً ولا رَغَباً ، ولكن تلْبيةً لتبعات إيمانه ، ومسئوليات دينه .

* * *

فعلى أثر وفاة الرسول عليه السلام ، اجتمع نفر كبير من الأمصار فى سَقيفة بنى ساعدة ليبايعوا « سعد بن عُبادة » ..

وعلم أبو بكر فذهب إلى السقيفة ومعه عمر وأبو عُبيدة بن الجراح .

لم يُسارع أبو بكر ليحتجز الخلافة لنفسه ، وإنما سارَع ليكُفَّ الفتنة أولاً ، ثم لِيكبحَ جماح الطائفية ، حيث وقف من يقول يا لَلأنصار ومَن يقول : يا لَلمهاجرين ..

ثم لِيسلُك مع المسلمين الطريق الأمْثَل لاختيار الخليفة الذى يستطيع أن يملأ الفراغ الرهيب الذى كان يملؤه رسول الله .

واجَه أبوبكر الجمع المحتشد فى أناة .

كان ثَمَّة كلمات تتطاير كالرصاص المقذوف ..

كان ناس من الأنصار يحرضون الأنصار على التشبث بالخلافة بأسلوب حادٍّ ولَاهِب .. !

وكان هناك مُهاجرون يرفعون أصواتهم الزَّاجرة ضِدَّ رغبة ذلك النفَر من الأنصار ..

لقد فقد الناس أكثر صوابهم بموت رسول الله ، فلماأداروا خواطرهم حول موضوع الخلافة وهم فى جوِّ الكارثة لا يزالون ، اضطربت الأمور فى أيديهم ، واتَّسعَ نِطاق البَلْبَلَة والاهْتياج ..

وليس أدلَّ على أن هذا الموقف كان دخيلاً عليهم وعلى إيمانهم من عودتهم السريعة إلى رُشْدهم واجتماع كلمتهم الغالبة حول هذا الحليم الأوَّاب ..

صحيح أن أبا بكر سيُؤْثِر المهاجرين بالخلافة ، ولكنْ ، ليس لأنهم مهاجرون أو قُرشيون ، بل لأن الهجرة أعطتهم مكان السَّبْق فى الإسلام .

فالهجرة كانت نهاية لمرحلة العُسْرة التى سُلط عليهم فيها كل بأس قريش

لِيُفْتَنُوا عن دينهم ، فما ازدادوا إلا إيماناً وثباتاً ..

وهذا هو الميزان الذى يزن أبو بكر به الناس .

ولقد استنبطه من كتاب الله سبحانه إذ يقول :

– « وَالسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ والأنصار » ثم هو سيُؤثِر المهاجرين بالخلافة أيضاً لأن النفر الذين طلبوا الخلافة من الأنصار ، قد حرصوا على أمر جَرت عادة الرسول ألايُمكِّن منه من يطلبه أو يحرص عليه ، وهو الولاية ..

وإن أبا بكر ليذكُر ذلك اليوم الذى ذهب فيه العباس عم النبى يسأله أن يوليه ولاية ، فأجابه عليه السلام قائلاً :

– « إنّا والله لا نُولِّى هذا الأمر أحداً يسأله . أو أحداً يحرص عليه » .. ! !

ذلك لأن مسئولية الحكم غُرم لا غُنْم .. وتضحية لا تزكية ، فإذا حرص عليها أحد ، فمعنى ذلك أنه لا يقدِّر المسئولية التى تنتظره عندها .. ! !

وهناك عند السقيفة همَّ عمر ليتكلم فى الحشد الثائر ، ولكنَّ أبا بكر أومأ إليه بيمينه ، واستأذنه فى أن يبدأ هو الحديث :

– « يا معشر الأنصار .

« إنكم لا تَذكُرون فضلاً إلاَّ وأنتم له أهل » ...

هكذا بدأ الصِّدِّيق قوله .. ثم راح الحديثُ يَنْساب من قلبه .

ومَضى يُدلى برأيه فى مَن يُرشح للخلافة .

إنه واحد من اثنين .

عمر بن الخطاب .. الرجل الذى أعز الله الإسلام به ..

وأبو عبيدة بن الجراح .. الذى وصفه الرسول بأنه « أمين هذه الأمة » ..

واقترب منهما أبو بكر وتوسَّطَهما ورفع ذراعيهما بكلتا يديه ، وقال للناس :

« لقد رضيتُ أحدَ هذين الرجلين ، عمر ، وأبى عبيدة .. » وارتعدت يد

« عمر » كأنما سقطت عليها جمرة ملتهبة ..

وغض « أبو عبيدة » عينيه الباكيتين فى حياء شديد ..

وصاح عمر :

- « والله لأن أُقَدَّم فيضرب عُنق فى غير إثم . أحب إلىَّ من أن أُؤَمَّر على قوم فيهم أبو بكر » .. ! !

وكان جلال هذا المشهد أبلغ من كل مقال ..

فما كاد عمر يلقى بكلمته هذه ويتقدم باسطاً يمينه ، مُبايعاً أبا بكر .. حتى ازدحم الأنصار على البيعة وكأنما دعاهم من السماء داع .. ! ! !

لقد كره المسلمون أن يعيشوا يوماً واحداً بغير إمام يجتمع عليه أمرهم .

فذهبوا يبحثون الأمر . ورسول الله لم يُدفن بعد ، وأعصابهم رازحة تحت وطأة موته ..

ولقد كان من المحتمل ألاَّ ينتهى « يوم السقيفة » دون أن يترك فى البناء شروخاً غائرة » .

لكن الله أكرم الإسلام والمسلمين يومها بأبى بكر . واجتاز الناس فى سلام عظيم أول تجربة من نوعها وأقساها ..

وغربت مع شمس ذلك اليوم كل الخلافات .

إن العظائم كُفْؤُها العظماء ..

ولقد اختار القدرُ هذا العظيم ليواجه جلائل الأمور وعظائم المستقبل .

ولسوف يُثبت هذا الخليفة العظيم جَدارَته بالمكانة التى بوَّأه الله إياها فى قلوب الناس ، وفى قلب التاريخ .. وسيتحرك تجاه الأحداث الداهمة بأسلوب يكشف عن مَدَى ما يستطيع الإيمان أن يقهر من صعاب ، ويأتى من معجزات ..

فما كاد نبأ موت الرسول عليه السلام يَذيع في البلاد حتى تصوَّر المرجفون والذين في قلوبهم مرض ممن كان إسلامهم مُداهنَةً وتَقيَّةً .. تصوروا أن الرسول لم يمت وحده ، وإنما مات الإسلام معه .. وعليهم أن يتحركوا بسرعة ليرثوا ذلك الدين الذى انتهى في ظنهم ، وليستردوا جميع الامتيازات التى كانوا قد فقدوها تحت ضغط الدين الجديد ..

وهكذا بدأت انتفاضات ، لم تلبث حتى تحولت إلى رِدَّة مستشرية ، وجيوش يُنادى بعضها بعضاً للزحف على المدينة ، والإجهاز على الإسلام .

فى البلاد البعيدة من المدينة كان أكثر المسلمين حديثى عهد بالإسلام ، وكان الدين مرتبطاً فى وجدانهم ارتباطاً كاملاً بصاحبه وبرسوله . فلما مات الرسول ، وقام فيهم من رؤسائهم من استغلَّ حَداثَة إسلامهم ، ساروا وراءه مرتدين .

والحق أنها لم تكن أول الأمر ردّة كاملة عن الدين .

إنما كانت « إضراباً » عن دفع الزكاة ..

لكن أبا بكر رآها ردّة ، ورآها عَجْماً لِعُود الإسلام بعد أن مات رسوله ، فإذا أبدى الإسلام عن أىِّ ضعف أمام هذا التمرد ، فَستجاوِز العواقب كل حُسبان – ويومئذ ظهر رأيان ..

* رأى يرى ألاَّ يُقاتَل هؤلاء ، ماداموا لم يقترفوا سوى امتناعهم عن دفع الزكاة ، وعلى رأس هذا الفريق ، عمر بن الخطاب .

* ورأى آخر ، يرى أن الزكاة – أوّلاً – ركن من الدين ليس من حق الخليفة أن يدع الناس يهدمونه ، ويرى – ثانياً – أن الامتناع عن أدائها ليس سوى البداية .. وليس سوى حركة استطلاع ، يتوالى بعدها التمرد والقضاء على الإسلام .

وحمل لواء هذا الرأى أبو بكر .

وهنا يَبِين الفارق الخفى بين طرازين من العظَمة ، وهو فارق تَناهَى فى الخفاء والدِّقّة ..

ولو سئل الناس – جميع الناس – قبل أن يعلن كل من أبى بكر وعمر عن رأيه فى هذه الأزمة .

لو سئِل الناس ، مَن الذى سيكون أكثر صرامة ، وشدة ، ومن الذى سيكون أكثر ليناً ومُهادنة لما ترددوا فى أن يشيروا إلى « عمر بن الخطاب » منادياً بالقمع الصارم ، وإلى « أبى بكر » داعياً إلى الأناة والملاينة .

ومع هذا ، فالذى حدث كان العكس والنقيض ..

فلقد باكَرَ « الصدّيق » الأزمة بإرادة مشحوذة مصممة على أن تَضرب فى غير تردُّد ، موضحاً اقتناعه فى هذه الكلمات :

– « والله لو منعونى عِقَال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه بالسيف » ! !

أما « عمر » ، فيقف من الأزمة موقفاً مغايراً .

ويوجه إلى الخليفة هذا السؤال :

– « كيف تقاتل قوماً يشهدون أن لا إله إلا الله ، وقد أخبر الرسول أنَّ مَن قالها فقد عصم دمه وماله » .. ؟؟

ويجيبه أبو بكر سائلاً :

– ألم يقل الرسول « إلاَّ بحقها » .. ؟ أَلَا إن الزكاة من حقها ..

ووراء موقف أبى بكر هذا ، علامتان مضيئتان ..

أولاهما ، تكشف عن يقين أبى بكر « المؤمن » ..

وثانيتهما ، تكشف عن بصيرة أبى بكر « الخليفة والزعيم » ..

* فيقينه بالله و برسوله يرتفع إلى مستوى الإذعان المطلق لما ألقياه من أمْر ومنهاج .

وهو بهذا يحمل كل مسئوليته عن الدين ، فلا يسمح بأن يتغير على عهده شيء من شرع الله وسنة رسوله . وكلٌ فريضة توفى الرسول وهى قائمة ، لا بد أن تظل قائمة مهما تكن التضحية .

* وهو ببصيرة القائد والحاكم والزعيم . يرى أن أية بادرة من الضعف تغشى الإسلام فى هذه الأزمة الفاصلة . ستُغْرِى قُوى النكسة والظلام بالوثوب عليه من كل واد ..

و بإيمانه ذاك ، و ببصيرته هذه ، تشكَّلت فى باطنه قوة هائلة هيأت عقله و إرادته لمواجهة الموقف على النحو الذى سبق ، والذى أظهر سَيْر الحوادث أنه لولاه لتعرض الإسلام لما يشبه الفنَاء ..

لكن هذا الإيمان وهذه البصيرة لم يكونا يعملان بمعزل عن رأى الجماعة ، وحقها فى الشُّورى والمناقشة .. ! ! !

فعلى الرغم من أن أبا بكر فى أزمة الردة كان يستطيع أن يمضى فى الحرب دون أن يقتنع بها الآخرون ، بل حتى لو لم يقتنع هو بها ، لأنه فى هذا — إنما يُنفِّذ حكماً شرعيًّا لا يملك هو ، ولا المسلمون أن يبدلوه ما داموا قد آمنوا بالقرآن واتخذوه دستوراً وشِرْعة ، وما دام القرآن يقول لهم : « قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » . . . .

على الرغم من هذا ، فإن أبا بكر لم يمتشق حُسامه حتى اقتنع المسلمون برأيه ، واقتنعوا بأنهم حقًّا ليسوا أمام مجرد محاولة للنكوص عن دفع الزكاة .. بل هم أمام تجمهر مُسَلَّح ، وزحف أكيد على المدينة وعلى الإسلام ..

وساعتئذ قال عمر قولته المأثورة :

« فما هو إلاّ أَنْ شرحَ الله صدرى لرأى أبى بكر » ..

وقال ابن مسعود كلمات تصور الموقف أصدق تصوير :

- « لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كِدنا نَهلِك فيه لولا أَن مَنَّ الله علينا بأبى بكر » ! !

لقد كان ثَمَّةَ قَدْر يسمح باختلاف الرأى فى هذا الموضوع ويَأذن بتباين النظر .. ومن ثمَّ عرض أبو بكر المسألة للمناقشة مُبدياً تصميمه على أن يحمل المسئولية التى يفرضها عليه القرآن .

وكان هذا القدْر الذى يسمح بتبادل الرأى متمثلاً فى الصورة التى بدأت بها المحاولة المرتدَّة .. إذ كانت فى الساعات الأولى لها مقصورة كما ذكرنا على الامتناع عن دفع الزكاة .

فهل يُوجب الامتناع عن دفع الزكاة القتال . . ؟

وبأسلوب عصرنا الحديث نقول : إن الأزمة بدأت بحركة « عصيان مدَنى » تمثَّل فى الامتناع عن دفع الضرائب ، وتحوَّل إلى « عصيان مسلح » ليؤكد حقه فى هذا الامتناع ..

فهل تقف الحكومة ساكتة ضارعة أمام هذا التَّحدِّى .. أو تحمل مسئوليةَ زجرِه وقمعه ..؟

هذا ؛ مع ملاحظة أن الذين امتنعوا عن دفع الضريبة وحملوا السلاح ، لم يظلوا مكانهم فى ديارهم مكتفين بموقف الدفاع إذا هوجموا ، بل نادى بعضهم بعضاً ليزحفوا على المدينة ..

هذا هو وَضع الأزمَة تماماً .

ومع ذلك ، فقد بلغ التَّسامح تجاهها أن يختلف فيها المسلمون ، ويتبنَّى الرجل الثانى فيهم وهو عمر بن الخطاب ، الرأى الهاتف بالمُوادعة ، وتركَهم

حتى يَفِيئوا تلقائيًّا إلى أمر الله وهُداه .. ! !

* * *

ونغادر موقف الردّة هذا وقتاً وجيزاً ، لنرى موقفاً آخر سبق وقفة الردّة ، وتجلَّى فيه إيمان أبى بكر بربه ، وبرسوله على نحو يجعل من هذا الرجل الشَّاهق الباهر نَسِيجَ وحده فى الإيمان .. ذلكم هو موقفه من بَعث أسامة ..

فقبل وفاة الرسول ، كان عليه السلام قد أعدَّ جيشاً تحت إمْرَةِ « أسامة بن زيد » ، وجْهته الشام . .

وكان الجيش يوم مات الرسول مُعَسكراً على بعد ثلاثة أميال من المدينة ، يتهيأ للسَّيْر .

وأرجأتْ وفاة الرسول زَحْفه .. واختلف الرأى بعد هذا فى أمره ..

فرأى فريق من المسلمين وعلى رأسهم عمر بن الخطاب أن بَعْث جيش أسامة إلى الشام مخاطرة رهيبة فى الوقت الذى أصبحت المدينة نفسها عاصمة الإسلام مهددة بغزو المرتدين .

ورأوا ضرورة عودة الجيش إلى المدينة ليكون فى مواجهة الأحداث الجديدة الزاحفة .

وكان « أسامة » نفسه قائدُ الجيش من أصحاب هذا الرأى ..

والمسألة حين تُقاس بالمنطق المجرد لا يبدو الصواب إلا فى هذا الرأى الذى تبنّاه عمر وأسامة ..

لكن أبا بكر يستمد منطقه من إيمانه .. وكل قضية عنده تتسع للاجتهاد إلا قضية أبرم الله فيها حكماً ، أو أصدر الرسول فيها أمراً . ولقد أمر الرسول عليه السلام قبيل وفاته أن ينفُذ بَعْثُ أسامة ، فلْيكن ما أمرَ الرسول به ، مهما تكن مستحدثات الظروف ، ومهما تكن الأخطار التى تهدد المدينة .. ! !

وهكذا كان جواب أبى بكر للناس :

– « أَنفِذوا بَعْثَ أُسامة ، فوالله لو خَطِفتنى الذئاب لأنفَذتهُ كما أمَرَ رسول الله ، وما كنت لأردَّ قضاء قضاه » .. ! !

لم يعد ثَمَّةَ نزاع فى الأمر ، ولم يكن أبو بكر بتصميمه هذا مُفتاتاً على آراء الآخرين ، لأن القضية أساساً ليست مما يُعرَض للشورى بعد أن قال فيها رسول الله كلمته وأعَطى أمره .

وأبو بكر يُؤْثِر أن تتخطفه الذئاب على أن يردَّ للرسول قضاء ، أو يُعطِّل مشيئة .. ! !

وعاد بعض المسلمين وعلى رأسهم « عمر بن الخطاب » أيضاً ، يطلبون من « أبى بكر » أن يجعل على رأس الجيش قائداً غير « أسامة » الذى كان فتى صغير السن محدود الخبرة ، لا سيَّما وفى هذا الجيش شيوخ الصحابة وأجِلَّاؤهم .

وهذه المسألة أيضاً إذا بُحثت فى ضوء المنطق المجرد يبدو ذلك الرأى سديداً .

لكن أبا بكر فى هذا ، شأنه فى كل أمر يستمد منطقه من إيمانه ..

فالذى وَلَّى أسامة قيادة هذا الجيش ، هو رسول الله ..

ولقد رضيه الصحابة ورسول الله حى ، أفيخلع أبو بكر رجلاً ولَّاه الرسول .. ؟؟

لم يكد عمر يعرض الرأى المقترح على أبى بكر حتى ثار الرجل الحليم ثورة ما ثار مثلَها قبلُ ولا بعد .. !

ولنَدَعْ شاهد عيان يصف لنا المشهد فيقول :

– « وثَبَ أبو بكر من مكانه وأخذ بلحية عمر ، وقال : وَيْحك يا ابن الخطاب .. أيُوَلِّيه رسول الله ، وتأمرنى أن أعزِله » ؟؟ ! !

« ثم قام يتبعه عمر إلى حيث كان الجيش معسكراً ، فدعاهم للتحرك على بركة الله وسار معهم مُودِّعاً ..

« ومشى الخليفة على قدميه إلى جوار أسامة الذى كان ممتطياً ظهر فرسه ..

« واستحْيا أسامة فهمَّ بالنزول داعياً خليفة رسول الله إلى الركوب ..

« فثبَّته أبو بكر بيده فى مكانه وهو يقول ، والله لاَ نَزَلْتَ ولا أَرْكب .. وماذا علىَّ أن أُغَبِّرَ قَدَمَىَّ فى سبيل الله ساعة » ..؟!!

كل أمر عنده سهل ، وكل جَلَلٍ يهون ، إلا أمراً يدعوه إلى الخروج قيد أنملة عن طاعة الله ورسوله ..

إن بينه وبين الله عقداً ومَوْثِقاً يتمثلان فى إيمانه الراسخ الصامد ..

وإنه لَمصمم على أن يحمل حتى الموت كافة الالتزامات التى يفرضها هذا الإيمان . ولو تخطَّفته الذئاب !!

وهو على يقين أن الإيمان يحمل معه بصيرته التى تهدى إلى الحق وإلى الصواب .

وفى قصة أسامة بالذات تجلَّى صدق هذا اليقين .

فإصرار أبى بكر على إنفاذ بعْث أسامة لم يُفِىء عليه مثوبة الطاعة فحسب ، بل أفاء عليه الرُّشد والمنهج الصواب ..

فهناك صوْب الشمال كانت الفتنة قد شرعت تَذِرُّ قَرْنيها ..

ولكن لم تكد القبائل التى مرَّ بها جيش أسامة وهو فى طريقه إلى الشام .. لم تكد تبصر هذا الجيش اللَّجب حتى عاد إليها صوابها ، وقال بعضهم لبعض :

– والله لو كانت المدينة تَئِن تحت وطأة الضعف والخلاف كما سمعنا ، ما كان بِوُسعها أن تبعث هذا الجيش ، فى هذه الأيام لتقاتل الروم – .. !!

وهكذا كان مجرد تحرُّك الجيش إلى غايته مُثبطاً أىَّ مثبط لكثير من القبائل

التى كانت فتنة الرِّدة تتسلل إليها .. ! !

* * *

ونعود إلى الصِّديق وهو يواجه الرِّدَّة بإيمانه الصلْب .

وعندما نعيش مع المصادر التاريخية التى سجَّلت أحداث تلك الأيام الفاصلة يأتلق حتى يملأ الأفق سؤال أكيد هو :

– أىّ مصير كان ينتظر الإسلام لو لم يكن أبو بكر يومئذ هناك ... ؟؟

لقد كان ابن مسعود يُبَسِّط الحقيقة الكبرى فى قولته السالفة .

« لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلِك فيه ، لولا أن مَنَّ الله علينا بأبى بكر » ..

أجل ، لقد كان « أبو بكر » يومئذ نعمةَ الله ومَثُوبته للدين ، وللناس ...

فقد تضرَّمت الأرض ناراً فى الجهات النائية من المدينة والتى كان معظم أهلها حديثى عهد بالإسلام ، ولم يكونوا يتصورون بفطرتهم الساذجة أن رسول الله يموت كما يموت الناس ، وهكذا بهذه السرعة .. !

لقد سقط هؤلاء تحت صياح الكاذبين المهرَةَ الذين كانوا يتربصون بالإسلام كل سوء .

لقد انشقت الأرض فجأة عن كل الموتورين به والمتربصين . وعن أنبياءَ كَذَبة ، قادوا ببراعة الإفْك ، جميعَ الذين كانت الغفلة تُرشِّحهم لأن يكونوا ضَحايا أكاذيبهم ، لاسيما أولئك البعيدين من المدينة والداخلين فى الإسلام من قريب ..

وقف طُليحة الأسدى يعلن نُبوَّة كاذبة ، وتبعه الكثيرون من قبائل أسد ، وغطفان ، وطيئ ، وعبس ، وذبيان ..

ثم اشتعلت نيران الردَّة فى بنى عامر ، وهوازن ، وسليم ..

ثم شبَّت فى بنى تميم ، وجاءتهم المرأة « سَجاح » تزعَق فيهم بنُبوَّتها الضالة المُهرِّجة .. ! !

ثم تمرَّد أهل اليمامة رافعين لواء أخطر مُدَّعى النبوة جميعاً – مُسَيلمة الكذاب ..

وهكذا ، بعد أن كان أبو بكر يُواجه فُلولاً صغيرة ، أصبح أمام جيوش جرارة ، قوامُها عشرات الألوف من المقاتلين .

وسرَت العدوى إلى أهل البحرين ، وعُمان ، والمهرة ، وصار هؤلاء وأولئك يتغنون ببيت من الشعر أطلقه أحد شعرائهم ..

أطَعنا رسول الله ما دام بيننا · فيالَعِبادِ الله ، ما لِأبى بكر ؟؟

ولكنْ ، لله من خَلْقِهِ رجال تتحوَّل المحن بين أيديهم إلى مِنَح ، والكوارث إلى ربيع ، تملؤه رُوح الحياة .. ! !

وأبو بكر ، من هؤلاء الرجال ... ! !

فخلال هذه المحنة الصاهرة التى ألمَّت بالإسلام ، تكشفت كل جوانب الضعف فى البناء البَشَرى للإسلام ، وهبَّ الرجل الحكيم القوى من فوره ، فرأبَ الصَّدْع ، وحوَّل الصفَّ إلى تماسكٍ واقتدار .. ! !

وكانت حظوظ الإسلام وافية ، ومقاديره سعيدة ، إذْ جاءته هذه المحنة وأبو بكر حامل الراية ، وقائد الأمة ..

وبفضل من الله ورحمة ، تفوَّق الرجل الكبير ، والخليفة المؤمن على أخطار ، كانت حَرِيَّةً بأن تُداعى بناء امبراطورية شامخة راسخة ، فما البالُ بدين ناشئٍ غضٍّ جديد ..؟ !

وكانت تلك الأيام المزلزلة أعظم أيام الإسلام بعد رسول الله وأخصبَها ، وأكثرها بركة عليه ، وخيراً لمصيره .

لقد سقطت الأقنعة عن الوجوه المتنكرة ، وتقَايأت الصدور الموتورة كل أحقادها الدفينة ، وأقبلت النار المباركة تصهر الأمة الجديدة وتَنفى خبَثَهَا بصورة شاملة ، وأكَّد إيمان أبى بكر مقدرته ، لا على اقتحام العقبات فحسب ، بل على أن يعلِّم الدنيا كلها أهمية الإيمان .

لقد آمن بأن الله حق ، وبأن الإسلام حق ، وبأن محمداً رسول الله حق .. فلم يَعُدْ له مع هذا الإيمان أن ينكُث أو يتردد ..

ولقد تركهم رسول الله على المحجَّة البيضاء ، ليلُها كنهارها .. وأبو بكر اليوم خليفة الرسول على هذا التراث ، وواجبه أن يفعل كل ما يعتقد أن الرسول كان يفعله لو أنه اليوم حى ..

أفكان الرسول يقف صامتاً أمام أولئك الكذبة الذين يحاولون أن يُنكِّسوا راية الحق ، ويطفئوا نور الله ..؟

إنهم برغم فساد منطقهم ، لم يتوسَّلوا بالمنطق ، بل حملوا السلاح وتنادَوْا لغزو المدينة .

فليصنع ما كان النبى صانِعَه ..

وهكذا أرسل بأسه العادل على المتمردين فى كل مكان ، وانتصرت جيوشه على تلك المعاقل .. ثم تعقَّبت المصادر الخفية المحركة للفتنة .. هناك فى الشام والعراق ، حيث كانت الروم والفرس تتخذان منهما مراكز وُثوب ، وأوكار مُؤامرة ..

وهناك فى الشام ، وفى العراق ، وفى دومة الجندل ، وجدت جيوش الإسلام قوماً عِطاشاً إلى الهُدى والعدل والأمن ..

أين المرتدُّون الذين حملوا السلاح ليقضوا على الدين الجديد ..؟؟

أين مسيلمة ، وطلحة ، وسجاح بجيوشهم الجرارة ..؟؟

أين أولئك الذين كانوا يتغنون وهم يرقصون بأسلحتهم قائلين :

فَيَالَعِبادِ الله ، ما لِأَبى بكر ..؟!

لقد تمزقوا بَدَداً كبقايا زوبعة ضالّة ، وولّوْا أمام الحق ، نائحين بشعر آخر :

ألا فاسْقِيَانى قَبل خَيْلِ أبى بكر لعلَّ منايانا قريبٌ ، ولا نَدرِى !!

« خَيل أبى بكر » ..؟!!

لقد صارت هذه العبارة كقعقعة الهول فى أسماع الذين أرادوا أن يُخضعوا الحق للباطل ..!!

* * *

ترى أى انقلاب هائل مَخر عُباب شخصية أبى بكر ..؟!

الحق أنه لم يكن ثمة انقلاب ما ، وليست مواقف الصديق مهما تتعاظم كلٌّ مألوف بِغَريبةٍ عليه ..

فطبيعة هذا الرجل العظيم من الطبائع التى يتمّ نُضجها واكتمالها فى بواكير العمر دون أن يكون لها فى مقبِل الأيام نَشاز أو غرابةُ أطوار ، إنما يكون لها امتداد طبيعى فى الآفاق الواسعة لخصائصها ، وفضائلها ، وقُواها ..

فأبو بكر الوديع ، هو أبو بكر القوى ، منذ لبس ثوب الحياة .

وقوته هذه الصامدة العارمة التى تبدَّت عنه وهو خليفة ، هى نفس قوته التى كان يملك زمامها ورسول الله حى ..

لكنه فى أيام الرسول ، كان يجتهد أن يبقى فى الظلال ، فلا يقع عليه ضوء ، ولا يُعزَى إليه فضل .

أما بعد وفاة الرسول عليه السلام ، فقد صار – شاء أم أبى – صاحب الدور الأول والرئيسى على مسرح الأحداث .. ومن ثَمَّ لن يستطيع أن يُخفى

مزاياه وسْط الزحام ، لأن مسئولياته وضعَته أمام جميع الصفوف ..

وهكذا أُتيح للإسلام أن يرى بصورة أوضح ، خصائص ابنه المبارك العظيم .. ! !

إن قوته وصلابته اللتين يُواجه بهما مسئولياته كخليفة ، هما اللتان واجه بهما من قبل مسئولياته كمؤمن ..

* ففى الأيام الأولى للدعوة ، لم يكن يسمع أن الرسول فى أذى ، إلا ويهرول مسرعاً ، فيخلص الرسول من الأذى ويُسلم نفسه إليه .. ! !

* ويوم الهجرة ، تمتلئ نفسه غبطةً بصحبة رسول الله وهو على يقين بأن قريشاً ستُجَنِّد لمطاردتهما كل بَأسها وقواها ..

* ويوم بَدر ، يلازم الرسول فى خيمته وهو يعلم أن الخطر كله إنما يُحْدِق بهذه الخيمة ..

* ويوم أُحُد ، حين خالف الرُّماة أمر نبيهم ، ظانِّينَ أن المعركة قد انتهت بهزيمة قريش ، فتركوا موقعهم أعلى الجبل ، حيث عاد جيش قريش فدمْدَم على المسلمين وأصلاهم هزيمة أليمة .. وخلا الميدان إلا من جُثث الشهداء يمثل بها المشركون فى وحشية دَاكِنة .

يومئذ بَصُرَ الرسول بأبى بكر ، يجرى وحده إلى المشركين شاهراً سيفه ، فيناديه فى ضَرَاعة عاليةٍ :

« اغمد سيفك يا أبا بكر ، لا تَفْجَعْنا بنفسك » ..

ويُواصِل الرسول نداءه لأبى بكر آمراً إياه أن يعود ، فيعود .

فما كان له أن يعصى لرسول الله أمراً ، حتى لو حال الأمر بينه وبين جلال الاستشهاد الذى كان مندفعاً نحوه فى شوق عظيم .. ! !

* * *

هذه هى القوة الأمينة التى كان أبو بكر يستمدها من أعماق كِيانه ، ومن أعماق إيمانه ..

كيانٌ عربى حُر ، تَلَقَّى من تربيته ومن بيئته أروع المزايا ..

وإيمانُ صِدِّيق عظيم ، يُؤثِر أن تتخطفه الذئاب ، ولا يعصى لإيمانِه أمراً ..

وإن مواقفه الباهرة ، قبل الخلافة وبعدها ، لَتُشكِّل نموذجاً واحداً من القوة ، والأمانة ، وسلامة التقدير .

ذلك أن الله أنعم عليه بطبيعة قويمة ، وإيمان مكين .

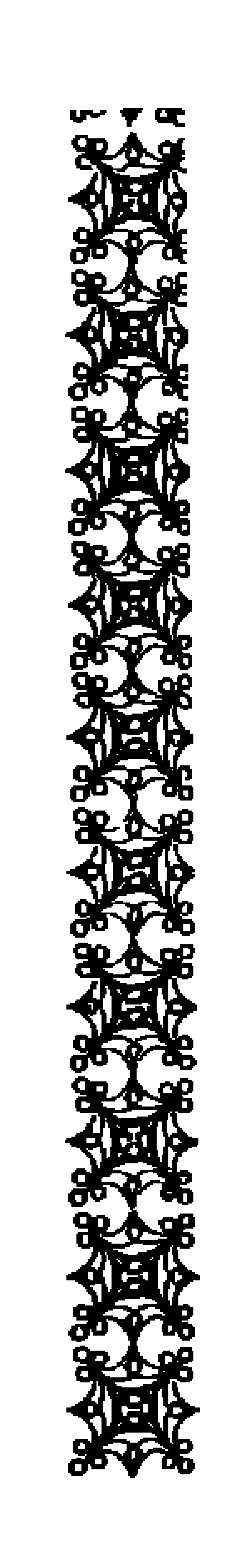
إيمان رجل أسلم وجْهه لله ، وهو مُحْسِن ..

وأعطى حياته لإيمانه وهو مُغتبط ..

وحملَ مسئولياتِ دَوْره فى تُقًى ، وأمانة ، وبصيرة .. ! !

الفصل الرابع

وَلَسْتُ بِخَيْرِكُم ..



هذا الرجل العظيم المتفوِّق .

كيف عاش حياته كحاكم ، ومَارَس دوره كخليفة ..؟

هذا الذى وُلد سيداً ، وعاش سيِّداً ..

هذا الذى لم تُفْلِت منه مَزِيّة ، ولم تغِبْ عنه فضيلة ..

هذا الذى أنقذ الإسلام من خطر محقق ، وردَّ إليه حياته وثَباته ..

هذا الذى بدأت أبراج كسرى وقيصر تتساقط تحت قدميه ، والعالم القديم كله يتداعى بين يديه ..

هل غيَّرت الخلافة من جوهر نفسه أو من أسلوب حياته ..؟

هل نَسِيَ تواضُعَه ، وفضائله فى زَحْمة انتصاراته ..؟!

هل عاش خليفة — فوق — الناس ..؟

أم ظَلَّ واحداً — بين — الناس ..؟

لنقف فى رحابه لنرى ..

ولنبدأ باللحظات الأولى من خلافته .

ها هو ذا ينقل خُطاه فى حياء ووَجل ، مُيَمِّماً وجهه شطر منبر رسول الله .

هذا المنبر الذى طالما نادى النبيُّ المسلمين من فوقه ، ودعاهم إلى الهدى ودين الحق . ! !

ها هو ذا أبو بكر ، يصعده لأول مرة ، بعد أن غاب عنه فَيْصَلُهُ ورُبَّانه ..

وإنه ليصعد درجتين ثم يجلس ، فهو لا يبيح لنفسه أن يصعد كل الدَّرَج ، وكل المُرْتَقَى ... ! !

لا يُبيح لنفسه أن يجلس حيث كان الرسول يجلس ..

وها هو ذا يستقبل الجمع الحاشد يتلو على الناس مَوْثِقَهُ وعهده :

« أيها الناس ..

« إنى وُلِّيتُ عليكم ، ولَستُ بخيركم ..

« إن أحْسَنْتُ فأعينونى ..

« وإن أسأتُ فقوِّمونى ..

« ألا إن الضعيف فيكم قوىّ عندى ، حتى آخذ الحقَّ له ..

« ألاَ وإن القوىَّ فيكم ضعيف عندى حتى آخذَ الحق منه ..

« أطيعونى ما أطعتُ الله ورسوله ..

« فإذا عصيتُ فلا طاعة لى عليكم » .. ! ! !

ألا إنه على كثرة ما وَعَى التاريخ من مواثيق وخُطب استهلَّ بها الحكام عهود حكمهم ، لا نجد ، ولن نجد قط مثل هذه الحكمة ، وهذا القِسْطاس ! !

ولقد زاد الموقف روعة وعظمة أن سُلوك صاحبه لم يَنِدَّ عنه لحظة ، ولم يَعْزُب عنه قِيد شَعْرة .. ! !

لقد كان أبو بكر بهذه الكلمات المعجزات ، يضع فى إطار من الذِّمة والصدق مسئوليات الحاكم الأمين ، ويكشف عن جوهر كل حكومةَ صالحة ..

« إنى وُلِّيتُ عليكم ولَسْتُ بخيركم » .

بالله ما أروعها من بداية ... ! !

فهو يريد أن ينزع من صدور الناس أىَّ وهم يجعلهم يضعون الحاكم فوق قَدْرِه ومكانه ..

يريد أن يَقِرَّ فى أفئدتهم أن الحكم ليس مزيَّة ولا امتيازاً .

إنما هو خدمة عامة فى أكثر مستويات هذه الخدمة مَشَقَّة ومسئولية وشظفاً..

إنه بهذه الكلمات الوِضاءِ يُقرِّرُ :

أن الحُكم وظيفة لا استعلاء ..

وزمالة ، لا كبرياء ..

ويقرر أن الحاكم « فرد » فى الأُمَّة . .

وليسَ « الأمَّةَ » فى فرد ..

« إنى وُلِّيتُ عليكم ، ولَسْتُ بخيركم » .

أجَـــــل ..

إنه ليس بخيرهم لأنه حاكم ..

ولكنه خيرُهم ، لأنه حكيم .. لأنه الصِّدِّيق الذى توفَّر له من الصدق ، ومن الإيمان ، ومن الأمانة ، ومن الرُّشد ما جعله ثانىَ اثْنَيْن ..

ومَن أجْدَرُ منه بهذه الكلمات ..؟

مَنْ أحقُّ مِنْ أبى بكر وأوْلَى بهذا الموقف .. موقف الحاكم الذى يدرك تماماً أنه لَن يكون عظيماً إلا بقدر ما تكون أمته عظيمة ..

ولن يكون حُرًّا إلا بقدر ما تكون أمته حُرّة ..

ولن يكون عزيزاً ، إلا بقدر ما تكون أمته عزيزة ..

ولَن يكون آمناً إلا بقدر ما يكون شعبُه آمناً ..

وسبيل ذلك عنده أن يملأ الشعبُ مكانَه ، ويدرك أنه الضَّمان الأوحد لكل ما يرجى للوطن وللحاكم من خير وعدْل وسَدَاد .. ! !

« لَسْتُ بخيركم ...

« فإن أحسنتُ فأعينونى » .

« وإن أسأتُ فقوِّمونى » ! !

وهذه هى وظيفة الشعب عند أبى بكر .

وهذا هو جوهر علاقته بحاكمه .

أن يكون عوناً له على نفسه وعلى مسئولياته .

وذلك لا يتم إلا بأن يقف منه موقف الشريك البصير لا موقف التّابع الضرير ..

يُعينه إذا أحسن ..

ويُقَوِّمه إذا أساء ..

ثم ينتقل أبو بكر فى خطابه وميثاقه إلى سيادة القانون فيعلنُها ، ويؤكد إصراره عليها ..

« الضعيف فيكم قوى ، حتى آخذ الحق له ..

« والقوى فيكم ضعيف ، حتى آخذ الحق منه ..

« أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ..

« فإذا عصيتُ ؛ فلا طاعةَ لى عليكم .. ! ! » .

* * *

أىُّ صدق .. وأية رَوْعة ..؟؟!

رجل له كل هذه المزايا وسْط هذه الجماعة المؤمنة ، ثم يبدأ خلافته داعياً الناس فى إصرار عظيم كى يأخذوا مكانهم إلى جواره .. لهم الحقوق نفسها ،

وعليهم الواجبات نفسها .. !

أجل .. لقد كان عظيماً - أىَّ عظيم - وهو يُعَلِّم الناس بقوله وبسلوكه أنه لا يَفْضُلُهُم فى شىء ، وأنه فى حاجة دائمة ومُلِحَّة إلى ما معَهم من فضل ، ومن رأى ، ومن اعتداد بالنفس ، وصلابة فى الحق ..

* * *

ولقد تقبل الخليفة منصب الخلافة ، غير راغب فيه ، ولا حريص عليه..

ولولا أنها التبعات الفاصلة فى الأيام الحاسمة لَأَوَىَ إلى رُكْن بعيد ، ولَهَرَبَ من ذلك الذى يُسارع الناس إليه ويتهالكون عليه ..

لقد كان صادقاً حين قال :

- « والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة .. ولَا سألْتُها الله فى سرٍّ ولا علانية » ..

أجل .. لم يكن عليها حريصاً .

ولولا أن يكون بتَخلِّيه عنها قد هرب من مسئوليات دينه وإيمانه لاتَّخَذَ سبيله إلى الفرار سَرَباً .. ! !

ولقد حاول ذلك فعلاً بعد أن فرغ مِن قمْع فتنة المرتدين .

فذات يوم دخل عليه عمر رضى الله عنه داره ، فألْفاهُ يبكى .

وما كاد يبصر عمر أمامه حتى تشبَّث به كأنه زورق نجاة وقال له :

- « ياعمر ، لا حاجة لى فى إمارتكم .. » .

ولم يتركه « عمر » يُتمُّ حديثه ، فقَد بادَرَه قائلاً :

- « إلى أين المفر ..؟ والله لا نُقيلك ، ولا نستقيلك » .. ! !

* * *

والآن ، لنقترب من بعض تلك المشاهد . . حيث يضع الخليفة

موضع التنفيذ ، خِطابَه الذى أعلنه يوم بيعته .

لِنَقْترب ولْنر هذا الابن المبا رَك العظيم . . لا للإسلام وحده . . بل للحياة كلها . .

لِنُبصر هذا الحاكم الهاطل يملأ حياة الناس عافية ، ورحمة ، وروعْة وأَمْناً .

لقد كتِب عليه أن يبدأ عهد خلافته بواقعة امْتُحِن فيها ولاؤه للقانون وللحق امتحاناً عظيماً .

ذلك أن السيدة فاطمة بنت رسول الله ، والعباس عمّ رسول الله ، ذهبا إليه يسألانه حقهما فى قطعة أرض صغيرة كان الرسول قد أصابها فى بعض الفىء . وكان عليه السلام يعطى السيدة فاطمة وبعض أهله جزءًا من نتاجها ، ثم يقسم الباقى بين فقراء أصحابه .

والآن ، بعد وفاته – عليه السلام – ذهبت فاطمة رضى الله عنها إلى خليفة الرسول تسأله هذه القطعة من الأرض باعتبارها ميراث أبيها عليه السلام .

قال أبو بكر لها وللعباس :

– « سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : [نحن مَعاشِرَ الأنبياء لا نُورَث ، ماتركْناهُ صَدَقة] وإنى واللهِ لا أدَعُ أمراً رأيتُ رسول الله يصنعه إلاَّ صنَعتُه ، فإنى أخشى إن تركْتُ شيئاً من أمره أن أَزِيغ » .

إن أبا بكر يعلم أن أَوْلى الناس بالرعاية – فى الحق – هى بنت رسول الله .

ويعلم كم كان الرسول يُحبُّها ويُؤْثِرُها .

ويعلم مَدَى حاجَتِها وزوجها وأولادها إلى هذه القطعة الصغيرة من الأرض .

وأبو بكر يؤثر أن يركب الصَّعب فى غبطة ، على أن يقول لابنة الرسول لا . .

ومع هذا ؟ فقد قالها . . ! !

إنه حين آمن بالرسول وبدينه وشرْعَته صارت هذه الشِّرْعَةُ قانوناً . .

وإيمانُه بالقانون لا ينفصل عن إيمانه بالله ورسوله . .

ولقد قال الرسول : نحن معاشِرَ الأنبياء لا نُورَث .

إذن ، فقد صار حكماً من أحكام الشريعة التى يؤمن بها ألا يُورَث نبىّ .

وهكذا وجد نفسه بين وَلاءَيْن :

وَلائِه لرسول الله فى أحب الناس إليه ، وهى ابْنته . .

وولائه للقانون الذى جاء به رسول الله نفسه .

ولم يكن له أن يتردَّد . .

فهو رجل لايحمل إيمان العوام . . بل إيمان العبَاقرة . .

الإيمان الذى لا تَثْنى عزيمتَه قُرْبَى أو مُجامَلة . .

ولم تكد السيدة فاطمة رضى الله عنها تسمع جواب أبى بكر عن مسألتها حتى اكْتَسى وجهها بالأسى والألَم .

والصِّدِّيق يعلم أنها أسرع الناس إلى طاعة رسول الله ، وأنها لا تخالف قط عن أمره . . ولكن قد يُخامرها الشك فى أن الرسول قد قال هذا الحديث ، وشرع هذا الحُكْم . .

ومن ثَمَّ أرسل إلى عمر ، وطَلْحة ، والزُّبَيْر ، وسعد بن أبى وقَّاص . وعبدالرحمن بن عوْف ، وسألهم أمامها :

« نشَدْتُكم بالذى تقوم السماء والأرض بأمره ، ألَم تعلموا أن رسول الله قال : نحن لا نُورَث ، ماتركْناه صَدقَة » ؟ ؟

وأدْلَتْ فاطمة بحجة جديدة فقالت للخليفة ! إنك تعلم أن الرسول كان قد وهبَها لى فى حياته ، فهى لى إذن بحق الْهِبَة ، لابحق الإرْث . .

قال أبو بكر ! أجَلْ، أعلم . . ولكنى رأيته يَقسمها بين الفقراء والمساكين وابن السبيل بعد أن يعطيكم منها مايكفيكم . . وإذن فقد أراد أن يكون فيها حق دائم للفقراء .

قالت فاطِمة : دَعْها تكن فى أيدينا ، ونَجْرِى فيها على ماكانت تَجْرِى عليه وهى فى يد رسول الله .

قال أبوبكر : لستُ أرى ذلك ، فأنا وَلِىُّ المؤمنين من بعد رسولهم ، وأنا أحق بذلك منكما – أضعُها فى الموضع الذى كان النبى يضعها فيه . . . . ! !

فى هذه الواقعة التى واجَهَت الصِّدِّيق فى بداية حُكْمه اجتاز إيمانه بالحق و بالقانون امتحاناً لا يُدرِك رَهْبَته ومشقته أحد سوى أبى بكر .

ولقد أصاب فى هذا الامتحان ظفراً عظماً . . ! !

* * *

واحترام أبى بكر للقانون لاينفصل عن احترامه للذين يحملون معه مسئولية رعايته .

فيوم خرج يُوَدِّع أُسامة وقد سبَق الحديثُ عنه ، كان بين جنود هذا الجيش ، عمر بن الخطاب .

وكان أبوبكر حريصاً على أن يبقى عمر بجواره فى المدينة ولقد كان يستطيع كخليفة للمسلمين أن يستبقيه بقرار ينفرد بإصداره ، لكنه يعلم أن فى هذا التصرُّف افْتياتاً على موظف مسئول ، يجب أن تتوفَّر له الضَّمانات التى تُمَكِّنه من أداء واجبه وممارسة وظيفته .

وأُولَى هذه الضَّمانات ألا تَنتقِص سُلْطة مًّا شيئاً من حقوقه حتى لو تكون سلطة الخليفة نفسه .

وهكذا ، اقترب الخليفة من قائد الجيش « أسامة » ، وقال له فى همس ورجاء .

— « إذا رأيتَ أن تترك لى عمر بن الخطاب ، فإنى أجدُ فى بقائه معى خيراً ونفعاً » . . ؟ ؟

وبادر أسامة بالرضا والمُوافقة .

إن أبا بكر لم يفعل ذلك مُجاملة ، أو تواضعاً .

إنما فعله واجباً . .

ولو قال أسامة ساعَتَئِذ : لا . ، ماوَسِع الخليفة أن يخالِفَ أو يَفتْات .

ومَن شاء أن يرى جَلال الحُكم ، وعَظَمة الحاكم ، فلينظر أبا بكر غَدَاةَ اسْتِخلافه .

إذ خرج من داره حاملاً على كتفيه لُفافة كبيرة من الثياب .

وفى الطريق يلقاه عمر بن الخطاب وأبو عُبيدة بن الجرّاح فيسألانه :

— إلى أين ياخليفة رسول الله . . ؟ ؟

فيجيبهما : إلى السُّوق . .

قال : عمر ! وماذا تصنع بالسوق ، وقد وُلِّيت أمرَ المسلمين . . ؟ ؟

قال : أبوبكر : فمن أين أُطعم عِيالى . . ؟

لم يُدخل مَنصب الخلافة على النفس الكبيرة أىَّ زَهْو ، ولم يُحرِّك لها رغبة — أيَّة رَغبـــة — فى تغيير أسلوب الحياة .

قال له عمر : انطلق معنا نَفرضْ لك شيئاً من بيت المال .

وصحبهما الخليفة إلى المسجد حيث نُودِيَ أصحاب الرسول ، وعرض

عليهم عمر رأيه فى أن يفرض للخليفة « بدَل تفرغ » . .

وفعلاً – فرَضوا له كَفافاً . . بعض شاة كل يوم ومائتا دينار وخمسين فى العام . . ثم زيدت بعد ذلك إلى شاة فى اليوم وثلثمائة دينار فى العام .

وعاش أبوبكر بهذا هو وأسْرته الكبيرة ، حتى بعد أن فُتح للمسلمين أبواب الرزق والرَّغَد ، وبدأت خيرات الشام والعراق تَفِدُ إلى المدينة .

ولم يكن الصِّدِّيق يلتزم القناعة لمجرد الزّهد ، بل كانت قناعتهُ جزءاً من فلسفته .

فهو يقدس اللقمة الحلال ويحاذِرُ أن يدخل جوفه كِسْرة فيها شبهة . .

وهو يرى أن الحلال ليس من الكثرة بحيث يتَّسع للإسراف .

فإذا وُجد سَرَف ، أو تَرف . فاعلم أنّ ثمَّة سُبُلاً للعيش غير مَشروعة . .

وإن خليفة« محمد » لَيُؤثِرُ أن يَشدَّ على بطنه حَجرين من المسْغَبة كما فعل مُعَلِّمه ورسوله ، على أن يُدخِل أمعاءه لُقمة فيها شُبْهة . .

يحدثنا الإمام البُخارى فى صحيحه أنه كان لخليفة رسول الله غلام جاءه يوماً بشىء فأكل منه ، ولما فرغ من أكله قال له الغلام : أتدرى ماهذا ياخليفة رسول الله . .؟

قال أبوبكر : ماهو . . ؟

قال الغلام : إنى كنتُ قد تكهَّنْتُ لرجل فى الجاهلية ، وما أُحسِن الكهانة إلا أنى خدَعْته . . وقد لَقِيَنِى اليوم فأعطانى ، فهذا الذى أكَلْتَ منه . .

« فأدخل أبوبكر يده فى فمه حتى قَاءَ كل شىء فى جوفه » . .

– ويُضيف صاحب الصَّفوة إلى ذلك أنه قيل لأبى بكر :

« يرحمك الله . . كُلُّ هذا من أجل لقمة واحدة . . ؟ ! !

فأجاب قائلاً :

— « والله لو لم تخرج إلاَّ مع نَفْسى لأخرجْتُها . . سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل جَسد نبَت من سُحْت فالنارُ أَوْلى به ، فخشيت أن يَنْبُتَ شيء من جسدى من هذه اللُّقمة » . . ! ! !

* * *

كان إصراره عظيماً على ألا ينال من بيت المال إلا مايكفيه وأهله بالمعروف .

وما نال من المال وهو خليفة ، ولا نال من مناعم الحياة إلا ما كان يأكل وأهله من جَريش الطعام . . وإلاَّ ما كانوا يلبسون من خَشنِ الثياب . . . ! !

وبرغم هذا كله ، فحين أدركه الموت دعا إليه ابنته عائشة رضى الله عنها وقال لها :

— انظرى مازاد فى مال أبى بكر مُنذ وَلِىَ هذا الأمر فَرُدِّيه على المسلمين .

وكانت روحه الطاهرة تتحرك صاعدة إلى بارئها وهو يردد هذه الكلمات..

تُرى ماذا كان هناك حتى يشغَل بال أبى بكر إلى هذا المدَى . . ؟

ماذا ادَّخر فى أيام خلافته من ثَراء يخاف أن يلقى به ربّه . . ؟ ؟ !

انظروا . .

إن عائشة حملت تركة أبيها فَور وفاته ، وفَوْر مبايعة عمر . حَمَلَتْها إلى أمير المؤمنين تنفيذاً لِوَصَاة أبيها ، فما كاد عمر يرى ويسمع حتّى انفجر باكياً ، وقال :

— « يرحم الله أبا بكر . . لقد أتعبَ كل الذين يجيئون بعده » . . ! !

يعنى بهذا أن الصدِّيق بسلوكه ووَرَعه قد سنَّ نَهْجاً تناهى فى العظمة ،

بحيث يُضْنِي بلوغُه ومُضَاهاتُه كلَّ خليفة يأتى على أَثره .

لماذا انفجر عمر باكياً حين نُثَِرت أمامه ثروة أبى بكر . . .

لقد كان أمراً غير معقول . . هذه التركة التى خلَّفها الرجل الذى افْتدى الإسلام بماله . . والخليفة الذى بدأت تنثال فى أيامه خيْرات الشام والعراق . .

هاهو ذا ، الميراث الذى خلَّفه أبوبكر ، والذى أصرَّ على أن يُردَّ إلى بيت المال .

* بَعير ، كان يستقى عليه الماء . . ! !
* ومِحْلَب ، كان يحلب فيه اللبَن . . ! !
* وعَباءَة ، كان يستقبل فيها الوفود . . ! !

* * *

هذا هو الإنسان الكبير البارُّ الذى جعل شعار حياته ، وشعارَ حُكمه :

– « لَسْتُ بخيركم » . . ! !

وإنه لايردد هذا الشعار تواضُعاً ، بل يُعبِّر به عن جوهره ويُضمِّنُهُ أسمى مبادئ سُلوكه . .

فهو – حقًّا – لايرى نفسه خيراً من أحد .

* لقد أنزل الله فيه قرآناً فقال : « إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، ثَانِىَ اثْنَيْنِ ، إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ » . .
* ولقد كان قبل الإسلام واحداً من أعلام قريش وسادتها . . .
* ولقد أخذ مكانه ، فى الإسلام من أول لحظة إلى جوار رسول الله فلم يتقدم عليه أحد . .
* ولقد أسلم وهو فى أوج ثرائه ، فلم يدَّخر لنفسه ولا لأهله درهماً ،

وبذل فى سبيل الله كل ثروته – يحرِّر الأرِقَّاء ، ويُطعم الطعام على حُبِّه مسكيناً ، ويتيماً ، وأسيراً . .

* ولقد بلغ من إعزاز الرسول له أن أمر بإيصاد جميع الأبواب التى كانت تُفَتح على المسجد ، إلا باباً واحداً أمر أن يبقى . . هو باب أبى بكر . .

* ولم يكن الرسول يغضب لنفسه قط . . لكنه لم يكن يصبر على أية إساءة طفيفة تُوجَه إلى أبى بكر .

* ولقد استخلفه الرسول عليه الصلاة والسلام على الصلاة ، وأَصَرَّ على استخلافه . .

* ولقد بايَعه المسلمون بعد النبى خليفة لهم وإماماً . .

* ولقد تحدَّته فتنةُ الردَّة تحدِّياً رهيباً ، فنصره الله عليها نصراً مؤزَّرًا . .

* ولقد رأى أبراج الروم والفرس تتداعَى تحت سنَابك خيله ، وأَقدام جُنده ، ورأى العالم القديم كله يبدأ رحلة فَنائه تحت خَفْق راياته الظَّافِرة . .

كل هذا ولم تتسلَّل إلى نفسه همسة بأنه خير من أحد . . ! !

بل كان دوماً ، يُمسك قلبه بيمينه ، ويجأر بدعاء رسول الله .

– « يامُقلِّب القلوب ، ثبِّت قلبى على دينك » . .

إنه وهو صاحب هذا الإيمان الذى يكفى أهل الأرض جميعاً ، يخاف على قلبه أن يَزيغ . .

ويقول وهو يبكى : « ياليتنى كُنت شجرة تُعْضَد » . . . ! !

فإذا ذُكِّر بمقَامه عند الله أجاب :

– « والله لا آمَنُ لمكر الله ، ولو كانت إحدى قدَمىَّ فى الجنة » . .

مِن هنا ، كان قوله « لستُ بخيركم » تعبيراً أميناً عن طبيعته ، وفقهه .

ومن هنا كان نَأْيُه الشديد عن كل مظاهر الزَّهْو والاستعلاء .

* * *

ولقد حقَّق « الصِّدِّيق » هذا المبدأ تحقيقاً جعل حياته العظيمة نسيج وحدها .

* فهو يوم كان يملك ثراء عريضاً ، سأل نفسه : لماذا ينعم بهذا الثراء والمسلمون فى فاقة . .؟ ؟

هل هو خير منهم . . ؟

وأجاب نفسه قائلاً : لا ، لستُ خيراً منهم . . واذن فلْنكن فى هذه النَّعماء سواء . . .

وهكذا أقْرض اللهَ كل ماله ، حتى لقد سأله الرسول يوماً « ماذا أبقيتَ لأهلِك يا أبا بكر » . . ؟ ؟

فأجاب : « أبقيْتُ لهم الله ورسوله » . . ! !

وهو حين صار خليفة للمسلمين وحين فتح الله عليهم من الرزق والخير مايسمح له بأن يعيش فى رغَد وسَعَة ، رفَض أن يتقاضى من بيت المال أكثر مما تتطلبه ضرورات العيش ، وأكثر مما ينالُ أى بيت من بيوت المسلمين يضم من الأنفُس ماتضمُّه أسرة أبى بكر .

* ولقد سأل نفسه : لماذا يأخذ أكثر مما يستحق . . ؟

هل هو خير من الآخرين حتى يختص نفسه بمزيد . . ؟

وأجاب نفسَه بأنه ليس خيراً من أحد . . وإذن فَلْيَعِش فى مُستوى المُواطن العادى فى أمته وجماعته ، مع أنه يوم كان يعيش من ماله ومن تجارته كان مُستْوى معيشته عند مُسْتَوى دَخْله . . رغَدٌ كثير ونَفقة واسِعَة . .

فلما وَلِىَ أمر الناس دَحَض كل ما من شأنه أن يخصَّه بامتياز — أىَّ

امتياز . . وردَّ جميل الذين اختاروه خليفة عليهم بأن فرض على نفسه مساواة كاملة بهم ، وجُهْداً مضْنياً فى سبيلهم . .

وإنّ عظمة أبى بكر ، ومِن بعده فى هذا ، الفاروق عمر ، لَتتمثَّل أكثر ما تتمثَّل فى أنهما سلَكا ذلك المسلَك النادر المثال ، وهما متربعان فوق كرسى الخلافة .

وأين . . ؟ ؟

فى أمَّة جديدة . . جديدة بكل معانى الكلمة ، تقرع أبواب العالَم ، ويُعانق النَّصر راياتها فى كل مكان . . ! !

وقد كان لابد لحكام أمة هذا شأنها ، أن يستحوذ عليهم قدْر من الزَّهو ، ومن الاستمتاع بالحياة مهما يكن زهدُهم ووَرعُهم ! ! . .

لكن شيئاً من هذا لم يحدث أبداً ، بل حدث النقيض .

فعاش « أبو بكر » مع دموعه الخاشعة ، يردد عبارته المأثورة :

« ياليتنى كنت شجرة تُعضَد » . . ! !

وعاش « عمر » مع دموعه الخاشعة ، يردد عبارته المأثورة .

« ياليت أُمَّ عمر لم تَلِد عمر » . ! !

وكانا ينثُران على الناس أسلابَ كسرى وقيصر ، وهما يسيران فى ثوبين ازدحمتْ فيهما الرِّقاع . . ! ! !

وإذا مات « أبو بكر » الخليفة عن بعير ، ومحلب ، وعباءة ، أصَرَّ على أن تُرَدَّ إلى بيت المال .

ياسكَّان هذا الكوكب الذى نعيش فوقه . . .

هل عندكم لهذه النماذج الطاهرة نظير . . ؟ ؟

ألا إنها مَدرسة القرآن . .

ألا إنها مدرسة محمد . . عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام . . ! !

* * *

إن هذه العبارة الحافلة : « لَستُ بخيركم » . . تُصَوِّرُ لنا جوهر الشخصية الفريدة التى كَانَها أبو بكر الصدِّيق .

فهو مُنذُ أسلم ، وقبل أن يكون خليفة يضع نفسه من الناس فى موضعٍ سَواء . . .

ولْنُصْغ الآن لـ « رَبيعة الأسلمى » صاحب رسول الله .

« كان بينى وبين أبى بكر كلام ، فقال لى كلمة كرهتها ، ثم نَدم عليها ، وقال لى : ياربيعة ، رُدَّ على مثلها حتى تكون قصاصاً . .

قلت : لا أفعل . .

« فقال لى : لتأخذنَّ بحقِّك منى ، أولأَشكُونَّك إلى رسول الله . .

« قلت : ما أنا بفاعل .

« فذهب عنى منطلقاً إلى النبى عليه السلام ، وانطلقتُ وراءه . .

« فجاء ناس من « أسْلَم » فقالوا : يرحم الله أبابكر . . فى أى شيء يستعدى عليك الرسول ، وهو الذى قال لك ماقال . . ؟

« فقلتُ لهم : اسكتوا ، هذا أبوبكر . . . هذا الذى قال الله عنه — ثانىَ اثنَيْن إذْ هُما فى الغار — إيّاكم لا يلتفت فيراكم تنصروننى عليه فيغضب ، فيغضب رسول الله لغضَبه ، فيغضب الله لغضبهما ، فتَهلِك ربيعة . .

« وانطلقتُ وراء أبى بكر حتى أتى الرسولَ فحدَّثه بما كان . .

« فرفع إلىَّ رسول الله رأسه وقال : ياربيعة ، مالكَ والصدِّيق . . ؟

قلتُ : يارسول الله . إنه قال لى كلمة كَرِهْتُها ثم طلب إلىَّ أن أردَّها

عليه لتكون قِصاصاً فأبيت . .

« فقال الرسول : أحسنْتَ يا ربيعة ، لاتردَّها عليه ، ولكن قل : غَفَرَ الله لك يا أبا بكر . .

« فقلتُ . غَفر الله لك يا أبا بكر . .

« فولىَّ أبو بكر وهو يبكى » . . . . ! !

والآن ، فلننظر . .

إنها كلمة واحدة ندَّتْ عن لسانه فَلْتة . . .

وهى كلمة لا يمكن أن تكون من فُحْش القول أبداً ؛ لأن أخلاقه لم تكن تسمح له بهذا ، ولم يُؤْثَر عنه حتى فى الجاهلية شىء من هذا .

هى كلمة هيِّنة ، ولكنها أصابت من ربيعة مَوْجعاً . . . فإذا أبو بكر يُزَلْزَلُ من أجلها ، ويأبى إلا القِصاص عليها مع أنه يومئذ كان الرجل الثانى فى الإسلام بعد رسول الله .

ولكنْ لم لا يصنع ما صنع ، وهو يرى الرجل الأول نفسه . . رسول الله الكريم ، يقف الموقف نفسه وينهج النَّهْج نفسه . . وَكَزَ رجُلا فى صدره وهو يُسوِّى صفوف المقاتلين فى إحدى الغزوات ، حتى إذا رأى الوكزَة قد آلمتْه ، يكشف عن صدره ، من فَوره ، ويُصر على أن يَكِزَهُ وكْزَةً مِثْلَها . . . ؟ ! !

ويروى لنا « أبو الدَّرْداء » نبأً شبيهاً بهذا ، فيقول :

– « كنتُ جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبْدَى عن رُكبتيه ، وقال : يارسول الله ، إنه كان بينى وبين عمر بن الخطاب شىء فأسرعتُ إليه نادماً وسألتُهُ أن يغفر لى فأبى علَىَّ . .

« فقال له الرسول : يغفر الله لك يا أبا بكر . .

« ثم إن عمر ندم ؛ فأتى منزل أبي بكر فلم يَجده . . ثم أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله أَنا كنتُ أظْلَم . . يارسول الله : أنا كنت أظلَم . .

« فقال الرسول : إن الله بعثنى إليكم ، فقلتُم كَذَب . . وقال أبو بكر : صدَقْت . . ووَاسانى بنفسه ، وماله ؛ فهل أنتم تاركون لى صاحبى . . ؟ فهل أنتم تاركون لى صاحبى . . ؟ »

إنه حين تنِدُّ منه كلمة عابرة لعمر ، أو لربيعة الأسلمى لا يقول لنفسه . لابأس ، وسيغفرها الله لأبى بكر ، صاحب كل جليل من المواقف . . وباذلِ كل عظيم من التضحيات . . لأن ما أنعم الله به عليه من التوفيق ورفيع الخِصال لا يبتَعِثُ فى نفسه الزَّهْو ، بل يُطالبه بالشكر وَيحْثثُّه إلى التواضع والعِرفان . .

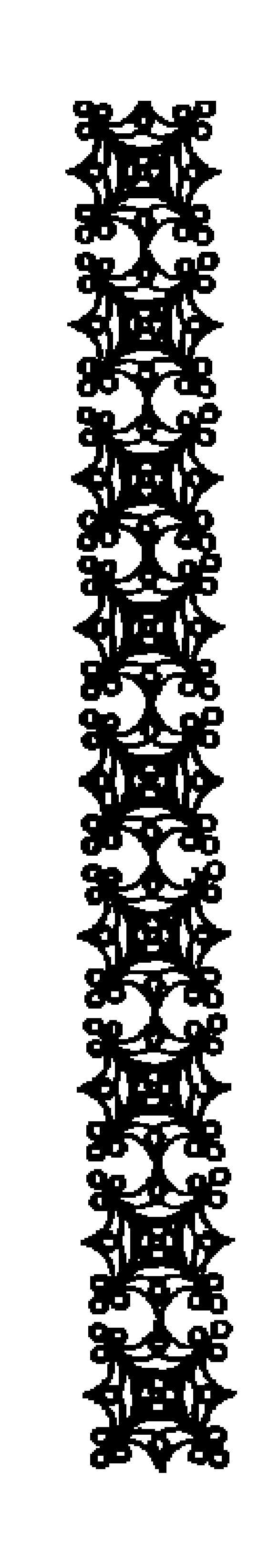
* * *

هكذا كان جَوْهُر علاقته بالناس جميعاً قبل الخلافة وبعدها .
ليس خيراً منهم . .
ولكنه واحد لا تميزه عنهم سوى فضائله الباهرة ، وعظمته السَّامقة . . ! !

الفصل الخامس

حالبُ الشّاة .. يا أمّاه !!





كانت بساطتُه ، أهم عناصر عظمته . .

وكان قبل أن يصير خليفة يُقدِّم لأهل الحيّ الذى يسكنه خدمة تناهَت فى الطرافة والروعة .

فقد كان فى جيرته بعض الأرامل العجائز اللائى مات أزواجهن أو استشهدوا فى سبيل الله .

كما كان هناك بعض اليتامى الذين فقدوا آباءهم . .

وكان رضى الله عنه يَؤُم بيوت الأولَيات فيحلُب لهن الشِّياه .

ويؤم بيوت الآخرين فيطهو لهم الطعام .

ولما صار خليفة ، تناهى إلى سمعه حَسْرة العجائز لأنهن سيُحرَمْنَ منذ اليوم من الخدمة الجليلة التى يؤديها لهن الرجل الصالح . .

— لكنه أخلف ظنونهن . . ! !

* * *

وذات يوم ، يقرع باب إحدى تلك الدُّور ، وتسارع إلى الباب فتاة

صغيرة لاتكاد تفتحه حتى تصيح .

- « إنه حالِبُ الشاة يا أمّاه » . .

وتُقبل الأم فإذا بها وجهاً لوجه أمام الخليفة العظيم ، فتقول لابنتها في حياء .

- « وَيحْك ! ألا تقولين خليفة رسول الله » . . ! ؟

ويُطرِق أبو بكر ويُهمْهِمُ مع نفسه بكلمات خافتة . .

لعلّه كان يقول : دعيها ، فقد وصَفَتْني بأحب أعمالى إلى الله . . ! !

وتقدم حَالِبُ الشاة ليؤدى الواجب الذى فرضَه على نفسه .

أجَل . .

حالِب الشياه للعجائز . . ! !

والعاجِن بيديه خبز الأيتام . . ! !

بَساطة ، ورحمة ، تفانياً فى أداء حق الحياة . . ! ! !

تُرى لو قُدِّر لأبى بكر بشمائله هذه أن يكون رئيس دولة فى عصرنا الحديث ، أكان منهجه هذا يتغيَّر . . ؟ ؟

كلا . .

صحيح أنه لم يكن سيحلب الشياه ، ولايطهو بيده الطعام . .

بيْد أنَّ شمائله تلك ، كانت ستُعبِّر عن نفسها فى مشاهِدَ كهذه تُناسِبُ روُح العصر دُون أن تَبْخَس نفسها فى شىء . .

إن بساطة هذا الإنسان البارّ ، وإن رَحْمته لَمن الأمور المعُجزة . .

ولقد أعطاه الرسول حقه حين قال عنه : « أَرْحَمُ أمَّتِى بأمتى أبوبكر »

لقد كان يحمل قلباً مشحوذ الإحساس بكل ألمٍ إنسانى .

وكان يملك إرادة مباركة تسارع إلى إنجاز توْصِيات قلبه الرشيد الودود . .

* * *

كان فى بَدء إسلامه لا يطيق أن يرى مُؤمناً يتعذب ، وكانت نفسه تَنُوء بالألم حين يكون أولئك المعذَّبون رقيقاً ، ومن ثَمَّ وضع ثروته فى سبيل تحريرهم وحرَّرَهم جميعاً بماله .

بلال . . عامر بن فهيرة . . زُبَيْرة . . أم عبس . . النَّهدية ، وابنتها . . جارية بن عمرو بن مؤمَّل . . وغير هؤلاء . .

وكان عظيماً ، وهو يُشعر هؤلاء الأرقّاء أنه لا يحررهم ، بل يُحرِّرُ نفسه قبلهم . . لأنه وقد آتاه الله المال ونعمة الإسلام بات واجباً عليه أن يُحطِّم من الأغلال الظالمة كل مايستطيع تحطيمه . . ؟ ؟

حين افْتدى بلالا ، قال له سيده — تحقيراً منه لشأن بلال — :

« خذه فلو أبيتَ إلا أوقية واحدة لبِعتُكَهُ بها » . . .

فأجابه أبو بكر قائلاً : « والله لو أبيتم إلا مائة لدفعتها » . . ! !

ومن الطريف أن يتناقل الناس فى مكة أن أبا بكر يبذل فى سبيل تحرير العبيد من ماله بَذْلَ السَّماح ، فيعمد بعضهم حين تنتابه أزمة مالية إلى إنزال العذاب بعبده كى يُسارع أبو بكر لنجدته ويتقاضاه السيد ثمناً يدفع به ضائقته وأزمته . . ! !

إنه رحيم أوَّاب . . .

إنه إنسان انتهى إليه كل ما فى الإنسانية من حنان ونَجدة ! !

ولقد خُلِق هكذا . . وخُلِق لهذا . .

فى أيام الجاهلية كان ذلك خلقه . .

لم يُعرف عنه مرة واحدة أنه قاتَل ، أو شاتَم ، أو أساء ، أو تخلَّى عن مُروءة ، أو بَخِل بماله أو جاهه .

فلمَا أسلم أُضيف إلى صِدق فِطرته ، صدقُ دينه . .

* * *

وكان « رَبَّانِيًّا » فى كل مشاعره وسُلُوكه .

يعبد الله كأنَّه يراه . . ويُعامل الناس جميعاً كأنهم أبناء الله .

ذهب عمر بعد وفاته يسأل زوجته « أسماء بنت عُمَيْس » .كيف كان أبو بكر يعبد ربه حين يخلو بنفسه ، فأجابته قائلة :

- « كان إذا جاء وقتُ السَّحَر قام فتوضأ وصلى . . ثم يظلُّ يُصلِّى . . يتلو القرآن ويبكى . ويسجد ويبكى . . ويدعو ويبكى . . وكنتُ آنئذ أَشَمُّ فى البيت رائحة كبد تُشْوَى » . . . . ! !

فبكى عمر رضى الله عنه قال :

- « أَنَّى لابن الخطاب مثل هذا » . . ؟ ؟

رائحة كبد تشوى من أبى بكر . .؟ ؟

الرجل الطهُور الذى لايكاد يُعرف له خطأ ، يحمل كل هذه النفس المُوَلْوِلَة من خشية الله ، وكل هذه الجوائح المُتلَظِّيَة من رَهبته . . ! !

أجَل . . إن إجلالَه ربَّه وتوقيره كان يملآن نفسه روعة ، يملآنها حياء ، وإخباتاً . .

ولقد كان يعلم علم اليقين أن من تمام توقيره ربه ، توقيرَ عِباد هذا الرب العظيم . .

وهكذا ، لم يكُن فى علاقاته بالناس يسير وَفْق ما ينبغى وحَسْب . . . بل وَفْقَ « الرَّبَّانِيَّة » التى أسكنها الله فى قلبه وضميره . . .

فهذا الرجل« الإلهى » لايُعطى الناس من ذات نفسه ماينتظرون .

بل يُعطى مايقدِر هو على إعطائه ، وإنه ليقدر على كثير وكثير .

ومن ثمَّ رأيناه دَوماً المُبادِرَ المقدام نحو كل واجب . نحو كل أزْمة . . ونحو كل تضحية . .

والمسْتوَى الذى تعمل عنده فضائله المتفوّقة مُستوى واحد ومتكافئ . .

فالروح المستبسلة التى واجَهتْ أزمات الدعوة فى حياة الرسول وبعد مماته – هى نفس الروح التى دفعت صاحبها إلى أن يحلُب الشياه للأيامى .. ويعجن الدقيق لليتامى .. ! !

* * *

وبَساطةُ خُلُقه تتواءم مع بساطة خَلْقه ، وكما أن بساطة شمائله تتضمَّن عظمة خارقة . فكذلك كانت بساطة تكوينه تتضمَّن شخصية خارقة . . ! !

وإذا أردنا أن نرى صُورَة التكْوين الجَسَدى لهذا السيد الجليل ، فهاهى ذى الصورة كما تُقدمها ابنته السيدة عائشة – فهو :

– « أبيض . . . نحيف . . . خفيف العارِضيْن . أَحْنَى الظهر . . معروق الوجه . . غائر العينين . ناتئ الجبهة . . عارى الأشاجع . . »

هذا هو الرجل الذى اختارته الأقدار ليكون على رأس أساتذة البشرية جميعاً فى فن الإيمان والعظمة . . ! !

هذا هو الرجل الذى اختير لتكون أيامُه السطورَ الأولى فى نَعْى أعظم امبراطوريات عصره وعالَمه – الروم وفارس . . ! !

وليكون أول خليفة لرسولٍ ، سيسير دينه كالضوء مُشرِّقاً ومُغرِّباً ، صانعاً حضارة تملأ الدنيا ، وتُسعد الناس . . .

أجَل . . وفى هذا الجسَد الناحِل وجَدَتِ العظمة منزلاً لها ومُقاماً . . !

انه لا يملك جِسمًا « مَلَكيًّا » وليس فى تكوينه شىء مِن سِمات الأباطرة . . .

لَكأَنَّ الله علم من عبده الصالح هذا ، أنه لن يضيق فى حياته بشىء مثلَ ضيقهِ بأن يَميزَه عن الناسْ شىء يجعله مَهْوَى أعينهم المبهورة ، فاختار له هذا المظهر البسيط والتكوين العادى . . ! !

انظروا وصْف ابنته له :

« غائر العينين . . . معروق الوجه . . نَاتِئُ الجبهة » . ! !

أجل . . لاشىء غير عادى فى سيّد قُريش ، وخليفة الرسول ، وقاهر جيوش الردة ، وحالب شياة الأيامى . . ! !

لاشىء غير عادى ، اللهم إلا ذلك الَّلألاَءُ المُشِعٌّ من عينيه اللتين تُرسلان سَناً عجيباً ، وأَلَقاً باهراً ، كأنهما كوكبان دُرِّيَان . . ! ! !

وإنهما لهَاجعتَان تحت جبهته العالية ، وجبينه المتَّئِد ، تنعكس عليهما كَل مافى قلبه من ضياء ، وقوة ، وحُب . . .

فإذا وقَعتا على أسىً ، الْتمعَتا بفيض من الحنان والرحمة والنجدة . .

وإذا وقعتا على ظلم ، توهَّجَتا باللَّهب المقدس . .

وإذا وقَعتا على وجه إنسان ، قرأتاه فى لحظة . . .

وإذا استقبلَتا آية من آيات الله ، فاضَتَا بالدمع خشيةً ، وإجلالا . . !

إنهما عينان غائرتان حقًّا ، لكنهما خُلِقَتا لِتَريَا الحق وتهتديا إليه فى غير عَناء . .

وجَسدُه نحيل ضامر ، لكنه يتفجَّر حيوية وطاقة . .

. وفى داخل هذا الجسد المتواضع ، تقيم روح من أعظم أرواح بنى الإنسان . . ! ! !

* * *

وبعد . .

فهذا هو الصِّديق . . ! ! لا يرفع الكاتبون مِن قَدره بما يَسطرون عنه وعن فضائله ، إنما يرفعون من أقْدار أنفسهم حين يُؤهِّلُونها للحديث عن هذا الطَّوْد الشامِخ العظيم . .

ولقد كان رضى الله عنه أكثرَ الناس حياءً إذا أُلْقيتْ عليه كلمة ثناء . . .

حينذاك ، كان الدمع يُبلِّل عينيه ، ويُردِّدُ ابْتهاله المأثور :

– « اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون . .

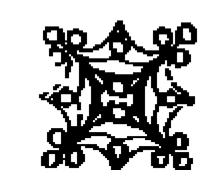
« واغفر لى مالا يعلمون . .

« ولا تُؤاخذنى بما يقولون . . » ! !

* * *

يرحَمُك الله ، أبا بكر . .

إنك دوْماً ، وأبداً ، لخَيْرٌ مما يظنون . . ! ! وخيرٌ ممّا يَسْطُرون . . ! !



كتب للمؤلف

١ – من هنا .. نبدأ

٢ – مواطنون .. لا رعايا

٣ – الديمقراطية ، أبداً

٤ – الدين للشعب

٥ – هذا .. أو الطوفان

٦ – لكى لا تحرثوا فى البحر

٧ – الله ، والحرية : ثلاثة أجزاء

– معاً على الطريق – محمد والمسيح

٩ – إنه الإنسان

١٠ – أفكار فى القمة

١١ – نحن البشر

١٢ – إنسانيات محمد

١٣ – الوصايا العشر

١٤ – بين يدى عمر

١٥ – فى البدء كان الكلمة

١٦ – كما تحدث القرآن

١٧ – وجاء أبو بكر

١٨ – مع الضمير الإنسانى
فى مسيره ومصيره

١٩ – كما تحدث الرسول

٢٠ – أزمة الحرية فى عالمنا

٢١ – رجال حول الرسول

٢٢ – فى رحاب على

٢٣ – وداعاً ، يا عثمان

٢٤ – أبناء الرسول فى كربلاء

٢٥ – معجزة الإسلام:
عمر بن عبد العزيز

٢٦ – عشرة أيام فى حياة الرسول

٢٧ – والموعد الله

رقم الإيداع		١٩٩٤ / ٥٤٥٩
الترقيم الدولى	977-02-4585-2	ISBN

١ / ٩٤ / ٤١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

. . عن الرجل الذى اصطنعته الأقدار ليكون على رأس أساتذة البشرية جميعاً فى فَنِّ الإيمان والعظمة . .

وليكون أول خليفة لرسول ، سيسير دينه كالضوء مُشرِّقاً ومُغَرِّباً ، صانِعاً حضارة تملأ الدنيا وتُسعد الناس . .

ولتكون أيامُه وخلافته رحمة أوَّابة . وعَدالةً مُطلقة . .وانطلاقاً بكلمات الله ورايات الإسلام فى شجاعة تجلّ عن النظير . .

هذا الرجل « الإلهىّ » لم يكن يعطى الناس من ذات نفسه ماينتظرون . بل يعطى مايقدِرُ هو على إعطائه . وإنه ليقدر على كثير ، وكثير . .

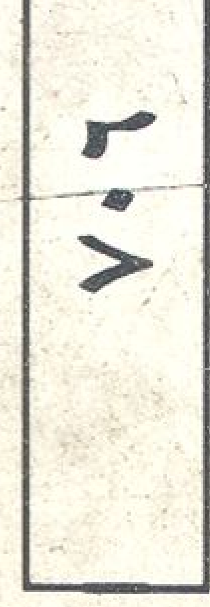
وفى مستوى واحد من الكفاءة الباهرة ، كانت فضائله المتفوقة تعمل .

فبشجاعة « القائد » يُدَمْدِم على العالم القديم ويسوقه إلى رحلة فنائه واختِفائه . .

وبتواضع « الخليفة » يَؤُمُّ بيوت الضَّعفَة ، حيث يحلُب الشياه للأيامى . . ويعجن الدقيق لليتامَى . . ! ! !

هذا هو الابن المُبارَك للإسلام ، والخليفة القوى الأمين لرسوله . .

هذا هو « الصِّدِّيق » — لا يرفع الكاتبون من قَدْره بما يسطرون عنه وعن فضائله . . بل يرفعون من أقدار أنفسهم حين يُؤَهِّلونها للحديث عن هذا الطود الشامخ العظيم .







دار المعارف